الفصل التاسع

حركة التجديد والنقد فى علم الاجتماع

امتدادات رايت ميلز فى التراث المعاصر

مقـــدمة :

ذكرت فى الفصل السادس أن جيل النقاد فى علم الاجتماع والذى طفر على السـطح بشدة ، بعد تراكم الصراعات البنائية والفكرية فى المجتمعات الأوروبيـة منذ بداية الخمسـينات قد جاء جيلا مميزا . جيلا ليس من جيل الشباب الذى فجر الصراع ، وانما من جيل أكبر سنا ، لكنه يمتلك وعيـا كبيرا بحركة التاريخ ، ويدرك طبيعة الصراعات والتوترات التى يكشف عنها المجتمع ، ويؤمن ايمانا راسخا بضرورة تغييره ، ولقد رأينا فى الفصل السابع الصورة المبكرة لهذا الجيل والتى ألهمت كل من تحدث فى النقـد الاجتماعى او السوسيولوجى بعد ذلك ، كما تمثلت فى آراء تشارلز رايت ميلز النقدية . وذكرت فى نهاية هذا الفصل أن الاتجاهات النقدية قد سـارت فى خطين متوازيين هما نفس الخطين اللذين طورهما رايت ميلز ، وأعنى النقد السوسيولوجى والنقد الاجتماعى . وكلاهما يرتبط بحركة التجديد والنقد فى علم الاجتماع التى ظهرت الحـاجة اليها من تصـادمه مع واقع عجز عن تفسيره .

ولقد تزعم الفن جولدنر الخط الأول (النقد السوسيولوجى) ، ولقد رأينا فى الفصـل السابق كيف يقود جولدنر حركة تجـديد ونقد التراث السوسيولوجى وفق نظريته النقدية ، وكيف يمثل هذا النقد سعيا مستمرا نحو التوصل الى بديل نظرى يكون له من الكفاءة والشمول ما يجعله قادرا

على الاحاطة بكل عناصر الواقع الاجتماعى وصفا وتفسيرا . ورغم أن نظرية جولدنر تكشف — مع عدم اعترافه بذلك — عن أوجه شبه بينها وبين النظرية النقدية المبكرة لرايت ميلز ، الا أن تأثير رايت ميلز كان أوضح ما يكون على الذين ساروا فى الخط الثانى ، واعنى تطوير نظرية للنقد الاجتماعى . فسوف نرى من خلال عرض آرائهم أنها تعد امتدادات حقيقية لآراء رايت ميلز فى التراث المعاصر ، مع تسليمنا بالطبع بأنها تمثل وجها آخر لحركة التجديد والنقد فى علم الاجتماع . ولكن لماذا نقول أنها امتدادات لآراء رايت ميلز ؟ الحقيقة أن هذه الآراء تتخذ مسالك متباينة الى حد ما فبعضها يسعى الى صياغة نظرية نقدية عن المجتمع من خلال تاريخ وتفنيد النظريات النقدية ، وبعضها يتجه مباشرة الى نقد الواقع ، وبعضها الآخر يجمع بين الميزتين وهو اكثر الأنواع قربا لرايت ميلز . ولكن هذه المسالك المتباينة تلتقى كلها حول نقطتين :

الأولى : محاولة تطوير نظرية نقدية للمجتمع اكمالا لنفس الطريق الذى سار فيه رايت ميلز .

الثانية : ان أى مسلك من هذه المسالك كان موجودا بطريقة أو بأخرى فى آراء رايت ميلز ، رغم أن أيا منها لا يعد صورة مطابقة للصورة المتكاملة التى قدمها رايت ميلز .

ولن يتسع هذا الفصل لعرض مختلف الاتجاهات والآراء التى تأثرت بميلز فى سعيها نحو الوصول الى نظرية نقدية للمجتمع ، فمثل هذا العرض سوف يكون عرضا سريعا تعوزه الدقة ، ولذلك فاننا سوف نختار اثنين من العلماء الذين تكشف آراؤهم — خاصة الجديدة منها — عن تأثير واضح برايت ميلز ، ووقع الاختيار فى هذا الصدد على كل من توم بوتومور وجون ركس . ولقد حسم عملية الاختيار عاملان هامان : العامل الأول : هو أن آراء كليهما لم تتبلور الا حديثا جدا وبعد عام ١٩٧٤ ، حقيقة أن التاريخ العلمى لكل منهما يكشف عن تميز واستقلال فى وجهة النظر ، ولكن هذا

التميز وهذا الاستقلال ازدادا وضوحا وتحولا الى تميز واضح للاتجاه النقدى فى مؤلفاتهما الأخيرة (١) . ولاشك أن هذا التحول كان استجابة طبيعية لتراكم الصراعات البنائية والفكرية التى بلغت ذروتها فى تمرد الشباب عام ١٩٦٨ . وسوف يتضح لنا من خلال عرض آرائهما انهما يوليان اهمية لهذه الحركة ، وانهما يعتبرانها بداية سلسلة طويلة من التغيرات فى المجتمعات الغربية(٢) . والعامل الثانى : أن كلا منهما ينتمى الى بريطانيا — اكثر المجتمعات الأوروبية محافظة واقلها اهتماما بالفكر النقدى . ويدل ذلك على عمق وشمول التغيرات التى يخبرها المجتمع الغربى والعلم الغربى على حد سواء . واذا كان التركيز على هذين العالمين سوف يحقق ميزة الدقة فى العرض فاننا لا نود أن تفوتنا ايضا ميزة الشمول .

ولذلك فاننا سوف نبدأ هذا الفصل باعطاء صورة عامة عن الاتجاهات الأساسية فى حركة التجديد والنقد ن خلال النقد الاجتماعى . وبذلك نكون قد تغلبنا على المشكلة وفى نفس الوقت حققنا هدفى الدقة والشمول . ومن ثم فان هذا الفصل سوف يضم ثلاثة عناصر اساسية يبدأ باعطاء صورة عامة عن حركة النقد الاجتماعى الحديثة فى كل من فرنسا والمانيا وامريكا ، ثم يستعرض الاتجاه النقدى عند كل من توم بوتومور وجون ركس .

---

(١) أصدر بوتومور عام ١٩٧٥ كتابا بعنوان « علم الاجتماع كنقد اجتماعى » وأصدر جون ركس عام ١٩٧٣ كتابا بعنوان « استكشاف علم الاجتماع » ألحقه بكتاب آخر عام ١٩٧٤ بعنوان « علم الاجتماع وتحرير العالم الحديث » انظر :

T.B. Bottomore, Sociology as Social Criticism, Unwin University Books, London 1975

J. Rex, Discovering Sociology, op. cit.

J. Rex, Sociology and the Demystification of Modern World, Routledge and Kegan, London, 1974.

(٢) ويؤكد ذلك ما ذهبنا اليه آنفا من أن تصادم هذه الصراعات البنائية والفكرية مع أرض الواقع هو الذى افرز الاتجاهات النقدية .

اولا ــ الاتجاهات الأساسية فى حركة النقد الاجتماعى :

اكدنا فيما سبق أن رايت ميلز قد طور ــ ضمن نظريتــه النقدية ــ اتجاها جديدا فى نقد المجتمع ، واصبح رائدا لهذا الاتجاه فى علم الاجتمــاع المعاصر(٣) . ولقد تزايد الاهتمام بنقد المجتمع مع تزايد التصادم بين الواقع المحافظ القديم وبين البناء الجديد الذى جسدته الحركات الاجتماعية ومــا ارتبط بها من اتجاهات فكرية ، ومع تزايد فشل المجتمع والعلم فى استيعاب هذه الصراعات او ايجاد حل لها . ولا شك أن هذا الفشل يرجع اساسا فى أن الممارسة السياسية والنشاط الاقتصادى داخل هذا المجتمع يتخــذان مسارا معينا يحجب جانبا كبيرا من حرية الفرد ، ويفرض عليه ضروبا كثيرة من الاستغلال والقهر . وينسحب هذا الوصف على المجتمعات الصناعيــة ــ أو ما بعد الصناعية اذا شئنا وصفا دقيقا ــ بصفة عامة بصرف النظر عن الأيديولوجية التى تسود فيها . ومع تفاقم هذه المشكلات ازداد الاتجاه نحو نقد المجتمع من أجل تغييره ، بعضهم يوجه نقده مباشرة نحو المجتمع ، وبعضهم يسعى الى بلورة نظرية نقدية للمجتمع وسوف نعرض وبسرعة فيما يلى لبعض هذه الاتجاهات . واذا كنا سنركز فيما بعد على بوتومور وركس وهما بريطانيان ، فيهمنا هنا أن نلتمس بعض خيوط الحركة النقدية فى أمريكا والمانيا وفرنسا .

---

(٣) عاصر رايت ميلز بعض نقاد المجتمع من أمثال ريسمان وجالبراث ، ولكن آراءهم لم تكن بشمول وتحدد آراء رايت ميلز .

(٤) ترتبط فكرة مجتمع ما بعد الصناعة بفكرة نهاية الأيديولوجيــا من حيث ان مجتمع ما بعد الصناعة فى نظر المروجين للفكرة هو مجتمع يختفى فيه الصراع الطبقى الذى يؤدى الى أن تقضى طبقة على طبقة أخرى ويحل محله المنافسة السلمية . ولكن سوف نرى أن بعض نقــاد المجتمع سوف يوافقون على هذه الفكرة ولكنهم لا يوافقون عليها من منطلق تسليمهم بنهاية الأيديولوجيا ، وانما من منطلق نقدى مؤداه أن بناء المجتمعات الصناعية يتصف بمجموعة مشتركة من الخصــائص تفرض على الفرد الكثير من القيود ، وتستوجب التغيير السريع .

١ ــ النقد الاجتماعى فى امريكا :

لم يظهر النقد الاجتماعى فى الولايات المتحدة بنفس حـــدته فى أوروبا الغربية وذلك لسببين رئيسيين : الأول : هو عدم ارتباط النقد الاجتماعى بالحركات الاجتماعية فى الولايات المتحدة ، ورغم ان هذه الحركات كانت عنيفة احيانا ، الا انها لم تصل أبدا الى الدرجة التى ظهرت بها فى أوروبا الغربيـــة خاصة فرنسا . والثانى : هو عدم التأثر بالفكر الماركسى الذى لم ينتشر فى الولايات المتحدة بنفس انتشاره فى أوروبا . ولكن رغم هذا فان حركة النقد الاجتماعى التى بداها رايت ميلز قد استمرت من خلال المتأثرين به وعلى رأسهم نورمان بيرنبوم Norman Birnbaum .

أصدر بيرنبوم فى عام ١٩٦٩ كتابا بعنوان « ازمة المجتمع الصناعى » (٥) ، قدم فيه دراسة نقدية لبناء المجتمع الصناعى ، الذى كان يقصد به دول غرب اوروبا وأمريكا . حيث يستقى مادة دراسته من الولايات المتحـــدة وبريطانيا وفرنسا والمانيا ، ويعتقد بيرنبوم أن هذا المجتمع الصناعى يمر بأزمة يكمن سببها فى عناصر بنائه الاجتماعى ذاتها . وأهم هذه العناصر هى : التركيب الطبقى ،وبناء القوة ، والثقافة .

فبالنسبة للتركيب الطبقى : يرفض بيرنبوم المقولة الراســـمالية التى تقول : بأن العداء القديم بين الطبقات الاجتماعية قد مضى وحلت محله صورة من التعاون ، ويرى فى مقابل ذلك أن الاستغـــلال والسيطرة من جانب الطبقات العليا للطبقة العاملة لم تخف حدتها كثيرا . وقد انطلق من ذلك ليحدد اهم ملامح الوضع الطبقى فى المجتمع الغربى الراسمالى . فاشار الى ظهور جماعات الصـــفوة الجـــديدة New elites التى تتـــكون من مديرى

---

(٥) N. Birnbaum, **The Crisis of Industrial ociety,** Oxford University Press, N.Y., 1969

وقد اعتمدت هنا على عرض مفصل لهذا الكتاب من المصدر التالى : عزت حجازى (عرض وتحليل) ــ ازمة المجتمع الصناعى ، مجلة عالم الفكر ، العدد الثالث ، المجلد الثانى ، ١٩٧١ .

المشروعات الصناعية ومديرى القطاع العام والمهنيين المستثمرين ، واهم ما يميز هؤلاء ليس امتلاك الثروة ، وانما التحكم فيها ، وليس احتكار السياسة بل القدرة على توجيهها . ويقابل هذه الصورة فئة الاداريين والفنيين وموظفى الخدمات وهى فئة تخضع للصفوة الجديدة ، والتعليم هو وسيلتها للحراك فى سلم التدرج الطبقى . وأشار الى ظهور الطبقة الوسطى الجديدة ، ويقابلها طبقة العمال الجديدة التى تميل — بفضل استقرار العمالة ونظام الضمان الاجتماعى — الى اكتساب كثير من ملامح الطبقة الوسطى . وفيما يتعلق بعلاقة الصفوة الجديدة بالطبقات الأخرى ، اوضح بيرنبوم أن هذه الصفوة لم تنشأ من خلال اكتساب ، بقدر ما نشأت من خلال الوراثة ، وانها تملك الثروة وادارتها ، والقدرة على التحكم فيها فى ذات الوقت . ومن ثم ظهر التفاوت الشاسع بينها وبين غيرها من الطبقات . أما فيما يتعلق بالطبقة الوسطى فقد أوضح : أن الفروق فى الثروة والسلطة والجاه بينها وبين الطبقة العاملة ترجع أساسا الى فروق فى فرص الحياة وفرص الترقى . ولا شك أن هذا التركيب يكشف عن تفاوت كبير فى الدخل وفرص الحياة . يؤدى بدوره الى أن تمارس الطبقات العليا استغلالا على الطبقات الدنيا . وان تحرم تلك الأخيرة من الكثير من فرص الحياة ، ويعد ذلك أحد جوانب ازمة المجتمع الصناعى .

أما بالنسبة لبناء القوة : فقد ذهب بيرنبوم الى أن تاريخ المجتمع الصناعى ليس هو تاريخ اتساع نطاق الحريات ، وانما صاحبة تسلط واضح من قبل الدولة والطبقات التى تملك السلطة ، واصبحت الدولة جهازا فى يد الطبقة التى تملك . ورغم ما مر بالمجتمعات الصناعية من تغيرات ، الا أن اساس السلطة فى الدولة لم يتغير كثيرا ، حيث تقوم هذه السلطة فى الكثير من الأحيان على القوة والعنف . ويستشهد بيرنيوم على رايه هذا من خلال توضيح دور الحروب فى الداخل والخارج فى تدعيم النظام العام ، ومن خلال ابراز دور بعض النظم التسلطية (الفاشية والنازية) فى ذلك ، فضلا عن ان نظامى التمثيل السياسى وحق الانتخاب لم يضمنا مشاركة المواطن العادى

فى الحكم ذلك المواطن الذى تتحكم فيه وسائل الاعلام ، وأجهزة الضبط الاجتماعى . وهاجم بيرنبوم فكرة « نهاية الأيديولوجيا » التى روج لها دانيال بل ، وفكرة « الهندسة الاجتماعية » التى روج لها كارل بوبر ذاهبا الى أن رجل السياسة لا يمكن أن يصدر من تصرفاته الا عن أيديولوجية ، وان ظهور فكرة التكنوقراطيين لا يعنى أن السياسة أصبحت فارغة من الأيديولوجية ، كما ان ظهور ثورة الشباب لهى دليل على استمرار التفكير الأيديولوجى .

كما هاجم ارتباط سلوك الدولة بمصالح الطبقة المتسلطة ، حيث تضحى بالشباب وبرفاهية الطبقة المحرومة فى سبيل تحقيق أهداف المؤسسة العسكرية التى تتفق ومصالح الطبقة الراسمالية . ويرى بيرنبوم ان المجتمعات الاشتراكية لم تستطع التغلب على هذه المثالب حيث أدى الغاء الملكية الخاصة بها الى ظهور ملكية الدول وظهرت بيروقراطية الحزب والدولة محل طبقة الراسمالية ، ومن ثم فشلت هذه الدول فى تحقيق مجتمع لا طبقى ، فهى ليست اقل طبقية من المجتمعات الراسمالية ، ولا تخلو من استعمال القمع والعنف فى فرض السلطة . ويعد هذا التحكم فى بناء القوة من جانب فئة قليلة فى المجتمعات الصناعية أو حرمان الطبقات الدنيا منها ، وبالتالى كبحها والسيطرة عليها ، الوجه الآخر — الثانى لأزمة المجتمع الصناعى .

أما بالنسبة للثقافة : فقد هاجم بيرنبوم الثقافة البرجوازية التى تقوم على فكرة «الانسان الصانع»Homo Feber حيث تسيطرجماعةمتميزة على السوق تكافح ضد الفئات الأدنى للاحتفاظ باعتباراتها . ومن هنا ارتبطت الثقافة باعتبارها عنصرا فى البناء الفوقى بالوضع الاقتصادى ، باعتبار البناء التحتى ، كما غلب عليها الطابع الصناعى بحيث شاعت داخلها قيم وانماط سلوكية وتنظيمات مستقاة من عمل الآلة نفسها . وينتقل بيرنبوم الى مناقشة مشكلة الجامعة باعتبارها أحد قنوات نقل الثقافة . فذهب الى ان الجامعة

انحرفت عن مهمتها الأساسية فى خدمة العقل ، واتجهت الى حماية مصالح الطبقة المتسلطة وتبنت نظرتها الى العالم . وهذا هو الذى ادى الى تفجير ثورة الطلبة على نظام الجامعة . فأدوات الثقافة فى المجتمع الصناعى تتركز فى نوع واحد من الثقافة هى ثقـــافة الطبقـــة الراقية وتفصلها عن ثقافة الجماهير ، وتفرضها على تلك الأخيرة بطرق وأساليب صناعية بحيث تصنع هى الانسان بدلا من أن يساهم فى صنعها اسهاما خلاقا .

ويوضح هذا التصور لأزمة المجتمع الصناعى فى نظر بيرنبوم تأثره الشديد برايت ميلز ، فآراؤه تقترب من آراء ميلز عن صفوة القوة ، حيث ركز اهتمامه على دور الصفوة التى تتحكم فى بنـــاء القوة ، وفى الثقـــافة وأساليب نقلها . والفرق بين ميلز وبيرنبوم فى تصور أزمة المجتمع الصناعى ، هو انطلاق ميلز من موقف ملتزم افصح عنه صراحة ، فلم تكشف آراء بيرنبوم — فى هذه المرحلة من تفكيره — عن التزام بأى أيديولوجية أو تبنى لأى مجموعة من القيم على غرار ما فعل ميلز . وربما اقترب بيرنبوم كثيرا من موقف الالتزام فى مؤلف حديث له (٦) ، حيث قدم تحليلا نقديا للتغيرات التى طرأت على المجتمع الصناعى ، والمحاولات التى تمت لفهم هذه التغيرات . ورغم نقده للماركسية لفشلها فى تحليل القوة السياسية الا فى ضوء موقف الطبقات الاجتماعية ، واهمالها للتغيرات الثقافية وآثارها على الحيـــاة الساسية ، ورغم نقده للصياغات الجديدة التى قدمها بعض الماركسيين المحدثين للماركسية ، الا انه اعتبر الماركسية نظرية نقدية ولم ينكر تأثره بها . وليس أدل على ذلك من أنه ركز على تركيز الملكية الخاصة فى جماعة الصفوة ، وذلك ليرفض الفكرة الذاهبة الى أنه ليس هناك صفوة مالكة وانما هى صفوة تكنوقراطية ، مع عدم انكاره أن هذه الصفوة التكنوقراطية لا تعد من الظواهر الهامة فى المجتمعات .

---

(٦) N. Birnbaum, **Toward a Critical Sociology**, N.Y., 1971.

٢ ــ النقد الاجتمــاعى فى فرنسا :

أما فى فرنســا فقد تفــاعل نقاد المجتمع تفــاعلا كبيرا مع الحركة الاجتماعية للطلاب ومع الاتجاهات الاشتراكية السياسية والفكرية المنتشرة فى فرنسا وجاءت أفكارهم مختلطة الى حد كبير بأفكار جيل الثوار من الشباب ورد فعل لها فى ذات الوقت ، كما أن نقدهم كان مرتبطا بجهودهم فى تطوير نظرية نقدية عن المجتمع ، وخير ممثل لاتجاه النقد الاجتماعى فى فرنسا هو آلان تورين A. Tourain ، ففى مقالة عن « حركة الطلبة فى فرنسا » (٧) . ربط تورين بين تفجر الطلبة وبين رؤيته النقدية للمجتمع ، فثورة الطلبة والمثقفين ترجع أساسا الى أن نشاطهم وموقعهم المهنى قد وضعهم أمام نظام أولى القوة القائم على السيطرة والتحكم الخفى . فالقوة فى المجتمع الصــناعى الجديد لم تعد ترتبط بالاستغلال الاقتصادى ، وانما أصبحت بناء اداريــا قائما على الضبط والتحكم ، تمارسه دولة متسلطة ، تتحكم فى التعليم والدعاية وأساليب الاستثمار بمشاركة مركب غامض من الشركات الكبرى ، وكلاهما يوجه التعليم والبحث العلمى نحو خدمة أغراضه السياسية أو قراراته الاقتصادية . ويعتقد تورين أن هذه الخصائص التى يتميز بهــا المجتمع الصناعى تجعله مجتمعا مميزا عن المجتمع الصناعى القديم (مجتمع القرن التاسع عشر) ، وهى خصائص تنسحب على كل المجتمعات الصناعية بصفة عامة .

ولقد اتضحت أفكار تورين عن « مجتمع ما بعد الصناعة » فى مؤلف

---

(٧) A. Tourain, «The French Student Movement May 1968», in A. Pizzormo (ed) Political Sociology, op. cit.,

والمقال مأخوذ من كتاب تورين بعنوان « حركة مايو » الذى نشر فى فرنسا عام ١٩٦٨ وترجم الى الانجليزية عام ١٩٧١ انظر :

A. Tourain, The May Movement, Trans. by L. Mayhew, Random House, 1971.

حديث له بهذا العنوان(٨) ، حيث أوضح أن هناك نمطا جديدا للمجتمع آخذا فى التشكل والظهور ، انه مجتمع ما بعد الصناعة أو المجتمع التكنوقراطى المبرمج . ويفزو — والحديث ما يزال لتورين — مجتمع ما بعد الصناعة ضروبا جديدة من الصراع تنشأ عن ضروب جديدة من الاستغلال . فاذا كان الصراع فى المجتمع الصناعى القديم قد انحصر بين العمل ورأس المال ، فان الصراع فى مجتمع ما بعد الصناعة ينشأ بين الذين يتحكمون فى اصدار القرارات السياسية والاقتصادية ، وبين أولئك الذين يعيشون فى حالة من المشاركة المغلوبة على امرها dependent participation ، وهى حالة من الاغتراب توجد عندما تضلل الطبقة الحاكمة الجماهير وتتحكم فيها وتفرض عليها الامتثال لقراراتها . فالاستغلال هنا ليس استغلالا اقتصاديا وانما استغلال سياسى ثقافى بالدرجة الأولى ، وتنشأ الثورة على هذا الاستغلال من رغبة الطبقة المغلوبة على امرها فى أن تكسر هذه الحالة وأن تكتسب قدرا من الاستقلال . ويفسر تورين ظهور الحركات الاجتماعية ، فى المجتمعات الغربية على أنها تعبير عن هذه الرغبة فى التحرر . وكان عليه أن يقدم تفسيرا لتركز هذه الحركات بين جماعات الشباب والمثقفين . ان ذلك يرتبط — فى رأيه — بطابع المجتمع الصناعى الجديد الذى لا يتخذ الاستغلال داخله الشكل الاقتصادى ، وانما يتخذ الشكل السياسى الثقافى الاقتصادى ، والذى وصلت فيه الطبقة العاملة الى درجة من الانضباط والتنظيم تمنعها من ممارسة دورها التاريخى . ومن ثم كان لابد أن تظهر

---

(٨) A. Tourain, **The Post-Industrial Society**, N.Y., 1971.

ولقد ذكرنا آنفا أن رؤية الراديكاليين ونقاد المجتمع لمجتمع ما بعد الصناعة تختلف عن رؤية أصحاب فكرة نهاية الأيديولوجيا (بل — ليبست — شيلز) ، ففى الوقت الذى ينظر فيه هؤلاء الى مجتمع ما بعد الصناعة على أنه مجتمع تغلب على جميع مشكلاته ، واختفت فيه حدة الصراع الطبقى ، يرى الراديكاليون أن مجتمع ما بعد الصناعة هو مجتمع ذو خصائص معينة ، وتظهر داخله أنواع معينة من الصراع تقودها جماعات غير تلك التى كانت موجودة فى المجتمع القديم .

الحركات الاجتماعية بين « .. الجماعات المتقدمة اقتصاديا ، وبين أجهزة البحث ، والفنيين من أصحاب المهارات لا السلطة ، وفى جميع الجامعة بطبيعة الحال(٩) » .

ولكن ما هو دور علم الاجتماع فى مثل هذا النمط من المجتمعات ، وفى وجود هذه الضروب الجديدة من الصراعات ؟ ترتبط اجابة هذا السؤال بمحاولة تورين تطوير نظرية للمجتمع . انه يرى أن هذه الظروف الجديدة سوف تفرز علم اجتماع نقدى يقف فى مواجهة العلم فى صورته القديمة المرتبطة بمصالح الدولة . يطلق تورين على صورة العلم المرتبطة بالدولة « علم اجتماع القرار Sociology of decision وهو الذى يهتم بتحقيق التكيف ، والتوفيق بين الجماعات المتنازعة وضبط التوترات الاجتماعية ، بحيث يصبح علماء الاجتماع خبراء يساعدون فى اصدار القرار السياسى الاقتصادى . اما العلم الجديد الذى يقف فى مواجهة هذا العلم القديم فيطلق عليه تورين « علم اجتماع المعارضة Sociology of opposition وهو العلم الذى يربط نفسه بالحركات الاجتماعية التى تصارع البناء القديم ويدافع عنها ويتبنى افكارها وأهدافها ويسعى الى كشف الحقائق ، ومن خلال الصراع بين هذين العلمين تنكشف الكثير من الحقائق ، ويحقق الأفراد قدرا من الحرية ، وتكشف وجهة نظر تورين هذه عن وعى بحقيقتين على جانب من الاهمية : الأولى : وعيه بسيطرة الاتجاه القديم فى علم الاجتماع ، الذى يرتبط بمصالح الدولة وكذلك سيطرة وقوة الظروف التى نشأ من خلالها . ومن ثم فلا يدعو الى القضاء عليه ، وانما يدعو الى أن يتبنى البناء الجديد الذى يحاول أن يقضى على البناء القديم ويغيره ، علما معارضا للعلم القديم بحيث تتضح حقائق الوجود من قدرة العلم الجديد على النضال والمعارضة . والثانية : وعيه بضرورة التزام الباحث فى علم الاجتماع ، ومن خلال هذا الالتزام تقع عليه تبعة نقد المجتمع القائم ، والكشف عن أساليب الاستغلال والسيطرة الكامنة فى بنائه . ولكن رغم هذا — فان رأى تورين يثير بعض التساؤلات : ما الفرق بين علم الاجتماع والممارسة السياسية ؟ وهل يمكن ان يتغلب احد

(٩) Ibid., p. 18

علمى الاجتماع على الآخر مثلما يتغلب حزب على الآخر ؟ والسبب الرئيسى وراء هذه التساؤلات هو أن راى تورين يوحى بأنه يرغب فى أن يدمج علم الاجتماع فى الممارسة السياسية ويصبح الباحث الاجتماعى رجل سياسة قبل أن يكون رجل اجتماع ، كما يوحى أيضا بامكانية تغلب علم على الآخر ، وخاصة تغلب « علم المعارضة » على « علم القرار » ، غير أن ذلك الأمر مرهون بامتداد نطاق الحركات الاجتماعية لتشمل جماعات أخرى ومجتمعات اخرى .

٣ ــ النقد الاجتمـــاعى فى المانيا :

أما فى المانيا فقد تطورت نظرية نقدية منتظمة داخل مدرسة فرانكفورت ومنذ وقت مبكر من هذا القرن . فقد اعتبر علمـــاء وفلاســـفة مدرســـة فرانكفورت أعمالهم النظرية جزءا من النضال الثورى ضد الرأسمالية ، وكان الموضوع الرئيسى لنقدهم ــ تماما مثلما هو الحال عند ماركس ــ هو الاقتصـــاد السياسى ، بمعنى أنهم كرسوا جهودهم لتحليل التنـــاقضات الاقتصادية للرأسمالية والتى يمكن أن تفتح ــ عند تفجيرها ــ طريقا نحو الاشتراكية . ومن أبرز رواد هذه النظرية النقدية المبكرة داخل مدرســـة فرانكفورت ماكس هوركهـــايمر M. Horkheimer وثيـــودور آدورنو Adorno وجيرجن هابرماس J. Habermas .

ولكن مع التغيرات التى طرأت على المجتمع الرأسمالى ، وما ارتبط بهذه التغيرات من صراعات جديدة، وقوى جديدة تحول اهتمام نقاد فرانكفورت من التركيز على التناقضات الاقتصادية الى نقد النظم السياسية والثقافية للرأسمالية الحديثة .واتضح هذا التحول فى آراء البرشت فيلمر Albrecht Wellmer التى ظهرت فى كتابه « النظرية النقدية للمجتمع(١٠) » حيث ذهب الى أن مفهوم ماركس عن الطبقة الاجتماعيـــة قد فقـــد فائدته كأداة تحليلية ، ومن ثم فانه لا يمكن أن يعبر الفكر النقدى عن نفسه من خلال اعتمـــاده (أو تعبيره) عن

---

(١٠) Albrecht Wellmer, Critical theory of Society, New York, 1971.

فكرة الصراع الطبقى ، وبناء على ذلك يطالب بنظرية نقدية ترتبط بالعلم وترتبط بالجامعة ، من حيث أن العلم قد أصبح « أسلوبا » للحياة فى المجتمعات الراسمالية . يعنى ذلك أن الصراع والنضال من أجل تحقيق مجتمع متحرر يجب ان يحل على المستوى الفكرى ومن خلال النقد والوصول الى اتفاق فكرى وليس من خلال النضال بالوسائل الكلاسيكية التى تبنتها الماركسية القديمة . ولا يعد ذلك رفضا للماركسية وانما هو فهم جديد لها فى ضوء ظروف المجتمع الصناعى الحديث . فالنظرية النقدية العلمية يجب أن تأخذ فى اعتبارها ظهور تركيبات جديدة من الأبنية التحتية والأبنية الفوقية ، اى أن تفهم المجتمع الحديث فهما يختلف عن فهم ماركس له . ويستلزم ذلك أن توسع من مجال تصورها عن المجتمع ، بحيث تسعى لتحقيق مجتمع تسوده الديمقراطية الاشتراكية ، والعدالة الاشتراكية ، والأخلاق الاشتراكية ، والوعى الاشتراكى . غير أن ذلك الوعى لا يرتبط بالحركة والممارسة ، بل يقتصر على النقد والاعتراض بحيث تقتصر مهمة النظرية النقدية على توضيح التناقض بين المجتمع كما هو قائم ، وبين ما يمكن وما يجب أن يكون فى ضوء امكاناته الفنية ، وكذلك تفسير معنى الحياة الخيرة التى يجب أن تنتشر داخله . غير أن وجهة نظر فيلمر هذه لا تفرض على النقد جدلا فكريا خاليا من أى هدف فالمحقق ان توضيح التناقضات بين ما هو كائن وبين ما ينبغى أن يكون سوف تكشف الحقيقة أمام أعداد كبيرة من الأفراد ، الأمر الذى يدفعهم نحو النضال من أجل الحياة الخيرة فى المجتمع المرغوب فيه . ولكن ذلك لا يمكن ان يدفع عن فيلمر تهمة تحويله للنظرية النقدية الى مسألة جدل فلسفى ، اكثر من كونها نظرية مرتبطة بالواقع وبالحركات الاجتماعية القائمة من أجل تغيير المجتمع . فالباحث أو الناقد عنده لا يعدو أن يكون فيلسوفا ينظر الى المجتمع من عل ، وعلى القاعدة أن تتطلع اليه ، وان تستلهم افكاره ونظرياته لتساعدها على النضال والكفاح من أجل تغيير المجتمع . ولعل ذلك يرتبط بالتراث الألمانى فى تمجيد استقلال الجامعة والتحرر من القيم ، وهو تراث وضع بذوره ماكس فيبر .

وبعد هذا العرض الموجز لاتجاهات النقد الاجتماعى فى كل من الولايات المتحدة وفرنسا والمانيا ، يهمنا ان نؤكد تأثر هؤلاء ـ نقاد المجتمع ـ فى هذه

المجتمعات بتراث رايت ميلز على الأقل فى فرنسا وأمريكا ، اذا اعتبرنا ان النقد الاجتماعى فى المانيا قد ترعرع فى احضان مدرسة فرانكفورت وهى سابقة فى ظهورها على رايت ميلز (ظهرت كتابات هوركهايمر النقدية فى العقد الرابع من هذا القرن) بل ان رايت ميلز نفسه قد تأثر بها على ما رأينا فى الفصل السابع من هذا البحث . ولكن لا شك أن التحول الذى طرأ على تفكير نقاد مدرسة فرانكفورت كان متأثرا بأفكار رايت ميلز فبدلا من ترديد أفكار ماركس حول التناقضات الاقتصادية بدأ هؤلاء النقاد يوسعون من مجال نظرتهم لهذه التناقضات لتشمل التناقضات السياسية والثقافية والاجتماعية ، وهى نظرة تنسحب ايضا على آراء نقاد فرنسا وأمريكا ، ولقد كان أول المتحدثين بها رايت ميلز . فقد رأينا فى الفصل السابع كيف أن تحليل رايت ميلز للمجتمع الأمريكى لم يتوقف عند مستوى التحليل الاقتصادى ، وانما امتد ليشمل المستوى السياسى والفكرى والعسكرى ، على أساس أن مظاهر الاستغلال فى المجتمع ليست ذات طابع اقتصادى بحت ، وانما ذات طابع سياسى وفكرى فى المحل الأول ، ولذلك فان لم يكن أى من هؤلاء قد تأثر برايت ميلز فان آراءهم جميعا تعتبر امتدادا لآراء ميلز التى تطورت فى نهاية خمسينات هذا القرن .

واذا كان هذا هو الحال فى أمريكا وفرنسا والمانيا ، فما هو الحال فى بريطانيا ؟ ذكرنا فى مقدمة هذا الفصل المبررات التى تدفعنا الى مناقشة النقد الاجتماعى فى بريطانيا بالتفصيل ، ولذلك فسوف نركز فى بقية الفصل على تحليل آراء كل من بوتومور وجون ركس ، وهما من أشهر علماء الاجتماع البريطانيين .

ثانيا ــ توماس بوتومور : من تاريخ النقد الى النظرية النقدية :

لا يوجد بين أصحاب النظرية النقدية الذين نعالجهم هنا من انتج من الدراسات والمقالات ما انتجه بوتومور ، ومع ذلك فانه يعتبر اقلهم وضوحا وهروبا من تحديد وجهة نظره صراحة ، ويفرض ذلك صعوبة كبيرة فى معالجة آراء بوتومور او محاولة حصرها . فلم يصنفه أى من الدارسين حسب اتجاه معين حتى الآن . حقيقة ان آراء ومجال اهتمامه يكشفان عن استقلال فى

التفكير ، وعدم ارتباط بالتراث الغربى لعلم الاجتماع ، ولكنه لم يهاجم هـذا التراث هجوما عنيفا الا فى احدث مؤلفاته الصادرة عام ١٩٧٥ (١١) . بحيث يمكن القول أن كتابه هذا قد كشف عن تحول واضح فى تفكيره ، أو بعبارة أدق عن تحديد دقيق وصريح لآرائه التى عبر عنها ضمنا فى مؤلفاته السابقة . ولقد كان هذا التحول — وكما نوهت آنفـا — رد فعل للتغيرات العنيفـة والصراعات البنائية والفكرية التى خبرتها المجتمعات الغربية منذ نهـاية الستينات وحتى يومنا هذا . ولكن هل معنى هذا اننـا سنركز على آرائه الأخيرة مع اهمال كتاباته السابقة ؟ لا يمكن لأى دارس لآراء بوتومور ان يركز على مظاهر التحول فى فكره دون اى اشارة الى دراساته السـابقة . فالآراء التى جاءت فى هذا المؤلف الأخير ما هى الا امتداد لما جـاء فى بعض دراساته السابقة . ولذلك فسوف نبذل فى هذه الفقرة جهدا لتتبع آراء بوتومور من خلال كل مؤلفاته ، وان كنا سوف نضع لأنفسنا مجموعة من الأفكار الموجهة التى تساعدنا على هذا التتبع . وبناء على ذلك سوف تشتمل هذه الفقرة على ثلاثة عناصر أساسية نعتقد انها اهم اسهامات بوتومور فى النظرية النقدية : موقفه من الماركسية وفهمه لها ، موقفه من تراث علم الاجتماع الغربى ، ثم موقفه من النقد الاجتماعى .

١ — نحو فهم جديد للماركسية :

كثيرا ما يوصف بوتومور بأنه « دارس ماركس Marx Scholar » فلم يخل اى كتاب له من حديث مستفيض عن الماركسية ، فضلا عن انه الف كتابين مستقلين عن ماركس احدهما بالاشتراك مع روبل بعنوان : « كارل ماركس : كتابات مختارة فى علم الاجتماع والفلسفة » والثانى اشرف على تحريره بعنوان « كارل ماركس : الكتابات لأولى » . غير أن وصف بوتومور بأنه « دارس ماركس » لا يقدم لنا صورة دقيقة عن موقفه من الماركسية . فالمحقق ان كتابات بوتومور عن ماركس توحى بثلاثة حقائق : الأولى : انه فعلا دارس — ودارس ممتاز — لماركس ، وان كان بوتومور لا يعد دارسا لماركس فقط وانما حجة فى الالمام بكل تراث علم الاجتماع . والثانية : انه مدافع عن ماركس

---

(11) T.B. Bottomore, Sociology as Social Criticism, op. cit.

ويتزعم الدعوة الى عدم اهمال الاسهامات الفكرية التى قدمها . والثالثة : انه قدم فهما جديدا للماركسية ، أو ركز على أحد الجوانب الهامة فيها ، واعنى ذلك الجانب المنهجى العلمى الذى يقدم تفسيرا علميا للمجتمع . ويهمنا هنا ان نبرز هذا الفهم الجديد للماركسية فى فكر بوتومور .

ولكن لابد أن نؤكد بادىء ذى بدء أن هذا الفهم الجديد للماركسية لا يعنى عدم توجيه النقد لها . ففى كتابه « الطبقات فى المجتمع الحديث » (١٢) يحشد بوتومور الانتقادات التى وجهت الى الماركسية — خاصة فيما يتعلق بقضية الطبقات والصراع وهى بؤرة النظرية الماركسية . وصنف بوتومور هذه الانتقادات الى ثلاثة جوانب رئيسية :

(أ) الأهمية التى أولاها ماركس للطبقة والصراعات الطبقية فى تفسير التغيرات التاريخية الأساسية فى المجتمع البشرى ، تلك الأهمية التى جعلته يهمل علاقات اجتماعية أخرى على جانب كبير من الأهمية (خاصة القومية والصراع بين الأمم) .

(ب) عدم كفاءة الماركسية فى تفسير العلاقات الطبقية فى أنماط المجتمعات المغايرة للنمط الراسمالى .

(ج) لم يعمق بناء المجتمعات الحديثة الهوة بين البرجوازية والبروليتاريا ، ولم تختف منه الشرائح الوسطى من السكان ، كما ان الطبقة البروليتارية لم تخبر نموا فى الوعى الاجتماعى بحيث تقوم بدورها التاريخى فى الثورة على ما تصور ماركس .

ولكن فى مقابل هذا النقد يدافع بوتومور عن الماركسية ، ويلقى تبعة ما تعرضت له الماركسية من نقد على من جاءوا بعد ماركس حيث يقول « فالنقد اذن ليس هو أن ماركس نفسه قد أخفق فى اختبار نظريته بقدر كاف من الشمول . فقد صاغ فروضا جديدة ومثيرة ، وحاول أن يطبقها بصرامة على

---

(١٢) ت.ب. بوتومور ، الطبقات فى المجتمع الحديث ، ترجمة محمد الجوهرى وزملائه ، دار الكتب الجامعية ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٢ ، ص ص ٨٢ — ٨٩ .

النموذج الذى بدأ انه بالغ الأهمية من الناحيتين النظرية والعملية ، واعنى نمو الراسمالية الحديثة . اما الفشل فهو فشل من جاء بعده من الماركسيين ، الذين امسكوا — الى حد كبير — عن اختبار مدى فائدة النظرية ونواحى القصور فيها عند تطبيقها على مواقف تاريخية اخرى » . ويبدو أن النقطة الجوهرية التى ينتقد فيها بوتومور ماركس هو تصوره لطبقتى البرجوازية والبروليتاريا فقد خضع بناء كل طبقة وتكوينها الى تغيرات كثيرة بحيث لم تعد بعد جماعة مغلقة ومستقرة . فالبرجوازية لم تعد تستأثر بالسلطة وحدها ، واستطاع النظام الراسمالى ان يدمج الطبقة العاملة داخله بحيث لم ترغب فى اى سلوك ثورى . وهذا النقد يشبه الى حد كبير النقد الذى قدمه رايت ميلز وغيره من نقاد المجتمع .

والمحقق أن تفنيد آراء ماركس فى ضوء المجتمع الراسمالى المعاصر كان ينطلق عند بوتومور — كما هو الحال عند ميلز — من معتقد مؤداه أن الماركسية لا تعدو أن تكون نظرية تفسر العلاقات الاجتماعية فى فترة معينة ومكان معين الى جانب تركيزها على بعض القوانين العامة التى تحكم حركة التاريخ . لقد كان ماركس « مهتما بشكل خاص — شأنه فى ذلك شأن غيره من مفكرى القرن التاسع عشر الذين ساهموا فى تأسيس علم الاجتماع — بدراسة أصول وتطور المجتمع الرأسمالى الحديث . ولقد اختار أن يدرس تلك الأصول وهذا التطور فى بلد واحد أساسا هو انجلترا » (١٣) ويكشف هذا النص عن أن بوتومور يدعو الى فهم الماركسية فى ضوء الظروف التى ظهرت فيها ، دون أن نخضعها — اثناء نقدنا لها — لظروف المجتمع الراسمالى الحديث الذى طرأت عليه الكثير من التغيرات ، ووجهة النظر هذه تشبه الى حد كبير وجهة نظر رايت ميلز فى نقده للماركسية والتى عرضناها فى الفصل السادس من هذا البحث . ومن هذه النقطة يبدأ فهم بوتومور المعاصر للماركسية .

فكثيرا ما يثور الجدل حول الماركسية ، هل هى فلسفة اجتماعيـــة ؟ هل هى يوتوبيا ؟ هل هى ايديولوجية وعقيدة أم هى نظرية عملية فى تفسير المجتمع وتفسير حركة التاريخ ؟ ذهب الباحثون مذاهب شتى فى موقفهم من القضايا التى تثيرها هذه الأسئلة . ويبدو أن الجدل حول هذه القضايا

---

(١٣) المرجع السابق ، ص ٨١ .

قد أدى بالباحثين الى نتيجتين ، الأولى : التعلق بالماركسية كأيديولوجيـــة والدفاع عن كونها كذلك ، والسعى نحو تطبيقها . والثانية : رفض الماركسية باعتبارها ضربا من ضروب الخيال التى لا يمكن أن يتحقق فى الواقع . وترتب على ذلك أن غاب على الباحثين فهم الجانب الآخر من الماركسية ، وأعنى الماركسية بوصفها نظرية علمية ، وبوصفها منهجا علميا له اساليبه المحددة فى تفسير حركة التاريخ وفى تحليل ابنية المجتمع ، او المجتمعات .وهذا هو الجانب الذى اهتم به بوتومور . لا يعنى ذلك أن بوتومور يرفض الجوانب الاخرى من الماركسية ، ولكنه يؤكد فقط أن اهمال هذا الجانب والتركيز على الجوانب الأخرى ، أو فهمها مندمجة بعضها بالبعض الآخر قد أفسد الفهم المعاصر للماركسية . ليس أدل على تأكيد بوتومور لهذا الجانب العلمى فى الماركسية أكثر مما جاء فى تمهيده للكتاب الذى اشترك فيه مع ماكسيمليين روبل حيث كتب يقول « أن ماركس يعتبر عالم اجتمـــاع ، وفيلسوفا ســـياسيا وثوريا . لقد تأثرت سمعته كعالم من ذلك الدمج بين هـــذه الجوانب ومن التحول التاريخى للماركسية الى أيديولوجية سياسية »(١٤) ونفهم من هذا النص أن بوتومور سوف يسعى الى فصل أفكار ماركس بعضها عن البعض الآخر ، ثم يخلصها مما شابها من مثالب أيديولوجية ليظهرها فى صورتها العلمية النقية ، ولقد فعل بوتومور ذلك بالفعل ، وكانت وسيلته فى ذلك هى الاستشهاد بنصوص من ماركس نفسه ، وربما كان هذا هو السبب الذى دفعه الى أن يجمع الكثير من هذه النصوص فى مؤلفات مستقلة . ولايهمنا ان نورد هذه النصوص ، ولكن يهمنا — فى المحل الأول — أن نعرض لبعض الأفكار التى طرحها بوتومور وهو يبرز هذا الجانب العلمى من الماركسية .

كاد بوتومور أن يرفع ماركس الى مرتبة العلمـــاء التجريبيين . وتكمن تجريبية ماركس — فى نظر بوتومور — فى عنايته باكتشاف القوانين التى تحكم تطور البناء الاقتصادى للمجتمع كعملية تاريخية ، وكذلك اكتشاف القوانين التى تحكم بناء المجتمع الراسمالى وما به من صراعات وتناقضـــات . ولقد

---

(١٤) بوتومور وربل ، **فى سيوسيولوجيا ماركس وفلسفته الاجتماعيـــة** ، ترجمة محمد حافظ يعقوب ،دار دمشق للطباعة والنشر ،١٩٧٢ .ص٢١ .

اختار ماركس انجلترا كمختبر يدرس فيه نمط الانتاج الرأسمالى مثله مثل الفيزيائى الذى يدرس العمليات الطبيعية . فاذا كان الكيميائى يستخدم المجهر والمواد الكيميائية ، فان ماركس يستخدم قوة التجريد والتحليل التاريخى(١٥) . ويعتقد بوتومور أن ماركس قد استخدم أساليب تجريبية فى الكشف عن ظروف المجتمع الرأسمالى عندما صمم استبيانا لدراسة أحوال الطبقة العاملة ، طبع منه ٢٥ الف نسخة وكان يهدف الى أن يقدم معرفة دقيقة وموضوعية للظروف التى تعيش وتعمل فيها الطبقة العاملة(١٦) .

فماركس فى نظر بوتومور ما هو الا عالم اجتماع ، أو رائد فذ من رواد علم الاجتماع استطاع أن يقدم تفسيرا علميا للمجتمع الذى عاش فيه ، ولا نستطيع أن نطالبه بأن تنطبق آراؤه على المجتمعات المعاصرة التى خبرت تغيرات كثيرة منذ وفاة ماركس وحتى الآن ، كما أنه من الخطأ التعلق بنظريته كأيديولوجية أو كعقيدة والسعى المستميت نحو تطبيقها . وقد اتضح اتجاه بوتومور نحو الفصل بين الماركسية كنظرية علمية وكأيديولوجية فى فصل ممتاز بعنوان « كارل ماركس : عالم اجتماع او ماركسى ؟ » حيث قرر أن أحد أسباب وضع نظرية ماركس فى أطار هذا السؤال يرجع لعدة أسباب : منها أن الفكر الماركسى يعتبر أحد الأنساق الفكرية المبكرة فى علم الاجتماع ، بمعنى انه حاول صياغة مفاهيم جديدة لوصف البناء الكلى للمجتمعات ، ولتفسير التغيرات الاجتماعية الكبرى مقدما بذلك أكبر جوانب نظريته تميزا وإثارة ، كما أن آراء الكثير من علماء الاجتماع قد تشكلت من خلال حوار مع الفكر الماركسى ، فأخصب المناقشات حول الفكر الماركسى جاءت اما من علماء اجتماع او فلاسفة (ماكس فيبر ، جروس Groce ، سوريل Sorel وباريتو) . ولقد أدى ذلك الى أن تصبح النظرية الماركسية هى المقابل الوحيد للوظيفية التى اثبتت

---

(١٥) المرجع السابق ، ص ٣٧ .

(١٦) أورد بوتومور نص الاستبيان فى نهاية مقدمته وهى مقسمة الى أربعة أقسام يهتم القسم الأول بالمهنة وظروف العمل ، ويهتم الثانى بساعات العمل والفراغ ، والثالث بالتشكيل والأجور وتكاليف المعيشة ، اما الرابع فقد اهتم بنضال الطبقة العاملة لتحسين هذه الظروف . انظر المرجع السابق مباشرة ، ص ص ٨٩ — ٩٩ .

تصورها وعدم اكتمالها بعد سيطرة دامت أكثر من ثلاثين عاما . معنى ذلك أن وضع السؤال على هذا النحو سوف يبرز الجانب العلمى من الفكر الماركسى وسوف يخلصه من شوائبه الماركسية . ويبدو أن بوتومور يود أن يفرق بين لفظين فى معالجة الفكر الماركسى كلمة « الماركسية » Marxism ونظرية ماركس Marx's theory الأولى تشير الى الفكر الماركسى كأيديولوجية سياسية والثانية تشير اليه كنظرية علمية ، الأولى تجعله « ماركسيا » والثانية تجعله « عالم اجتماع » .

ومع محاولة ابراز الجانب العلمى فى الفكر الماركسى يقرر بوتومور أن الكثير من القضايا الماركسية تتخذ شكل القوانين العامة من ذلك مثلا القول بأن تاريخ المجتمع هو تاريخ النضال الطبقى ، وأن شكل النظم الاجتماعية والأفكار المرتبطة بها تتحلل من خلال البناء الاقتصادى للمجتمع . بجانب هذه القوانين العامة — التى قد تنطبق على كل المجتمعات — هناك القوانين الخاصة التى ترتبط بفترة تاريخية معينة ، من ذلك مثلا قانون حركة (تحول) المجتمع الراسمالى الحديث . يرتبط كلا النوعين من القوانين ارتباطا وثيقا فى نظرية ماركس . وهذا الترابط بين العام والخاص فى فكر ماركس يجعله يبتعد ابتعادا كليا عن فلسفة التاريخ ويقترب اقترابا كليا من النظرية العلمية للمجتمع بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، واعنى « هيكل من القوانين العامة ترتبط بها قضايا امبيريقية مفصلة » .

ويلقى بوتومور على الماركسيين المحدثين تبعية أهمال جوانب كثيرة من الماركسية على راسها هذا الجانب العلمى ، فقد اهتموا بالأمور التى عالجها ماركس باستفاضة مثل نشاة البرجوازية داخل المجتمع الاقطاعى ، والتحول من الاقطاع الى الراسمالية ، والمراحل الأولى من الراسمالية . ولقد ادى هذا الاهمال من جانب الماركسيين لبعض جوانب الفكر الماركسى الى أن يطورها علماء غير ماركسيين . فالمحقق أن الأفكار المرتبطة بتطور الطبقات الاجتماعية الحديثة ، وكذلك جماعات الصفوة ، بالأيديولوجيات ، والأحزاب السياسية ، وتحليل الحركات الثورية ، كانت من ابداع ماركس نفسه،ولكن أهم الدراسات التى اجريت بصددها قدمها دارسون غير ماركسيين — زمبارت ، ماكس فيبر ،

شيلز ، جايجر ، كارل مانهايم ، فبلن ، رايت ميلز (١٧) . ففى نطاق البحث السوسيولوجى ليس هناك ماركس واحد استطاع أن يحقق انجاز ماكس فيبر فى استخدام قضايا ماركس العامة حول العلاقة بين الأيديولوجيات والبناء الاجتماعى فى البحث عن دور الأفكار والمعتقدات الدينية فى التغيير الاجتماعى وفى ارتباطاتها بالطبقات الاجتماعية المختلفة » .

ان بوتومور هنـــا يود أن يفصـــل بين ما يسميه ماركسية ماركس ، وماركسية الماركسيين ، من حيث أن النسق الفكرى لماركس لا يمكن فهمه على انه تعبير عن أهداف سياسة أو اجتماعية ، ولقد تسبب فهم الماركسيين له على انه أيديولوجيـــة سياسية فى تشويهه وانحرافه انحرافا حقيقيا ، فلا يعتبر ماركس نفسه مبدعا لعقيدة سياسية تمثـــل مذهبا فريدا للطبقة العاملة ، انه عالم يستخدم أساليبه المنهجية (التجريد ، التحليل التاريخى ، الجدلى ، الدراسة الواقعية) فى تشريح المجتمع المدنى ، ونظام الطبقـــات والأيديولوجيات ، والتغيير الثورى . ولقد كان ماركس يصر على انه لا ينظر الى العالم نظرة مذهبية ، وانما « يطور بعض المبادىء عن العالم تختلف عن تلك التى تنتشر داخله » ولقد ظهر خلال كل أعماله التزام عميق بالبحث عن الحقائق الاجتماعية بطريق موضوعى . ولكنها موضوعية لا تخلو من التزام . فأى معرفة موضوعية يسعى اليها الباحث يجب استخدامها فى رفع الوعى الطبقى لدى العمال . ويركز بوتومور على اهمية وضرورة ترابط هذين الهدفين اللذين سعى اليهما ماركس فى علم الاجتماع الحديث . فاذا كان لعلم الاجتماع اى فائدة تطبيقية ، فان أحد الجوانب الهامة فى تطبيقه تتمثل فى نشر المعرفة الخاصة بطبيعة العلاقات الاجتماعيـــة فى مجتمع معين بغرض زيادة وعى الأفراد بحياتهم الاجتماعية .

ويكشف هـــذا العرض لموقف بوتومور من الفكر المـــاركسى عن ثلاثة جوانب : الأول : اهتمامه بالطابع العلمى للتفكير الماركسى ، وادراكه لكون ان هذا التفكير يعتبر ابن عصر بعينه ، ولا نطمع فى ان يفسر لنا بعض جوانب

---

(١٧) هـــذا اذا اعتبرنا ان ميلز لم يتأثر بماركس أو لم يفهمـــه نفس فهم بوتومور له .

حياتنا المعاصرة . والثانى : ان تلك المهمة الأخيرة ، وأعنى تفسير بعض جوانب حياتنا المعاصرة من خلال الفكر الماركسى ، مهمة تقع أساسا على اتباع ماركس ، ويعتقد بوتومور أنهم لم ينجزوها على وجهها الصحيح ، بل انجزها علماء غير ماركسيين . ولكن بوتومور لم يوضح موقفه من هذه الانجازات . هل هى اسهامات افادت الماركسية أم عطلت نموها فى تلك الجوانب التى تناولتها بالدراسة . والثالث : انه ادرك قدرة النظرية الماركسية على الكشف عن طبيعة العلاقات الاجتماعية فى مجتمعنا الحديث ومعرفة اتجاهاتها ، ومن ثم زيادة قدرة الأفراد والجماعات ، خاصة الجماعات المضطهدة على فهم واقعهم الاجتماعى ، ووعيهم بهذا الواقع .

والحقيقة أن موقف بوتومور من هذه الجوانب الثلاثة لا يختلف كثيرا عن موقف رايت ميلز . فقد اتضح لنا فيما سبق أن رايت ميلز قد تشرب الروح العامة للماركسية ، ورفض بعض قضاياها ، على أنها لا يمكن أن تنطبق على مجتمعنا المعاصر ، وقبل بعض القضايا واوضح قدرتها التفسيرية فى مجتمعنا . كما اتضح لنا أيضا أن ميلز أدرك اختلاف طبيعة المجتمع الذى كتب عنه ماركس عن مجتمعنا الحديث ، وضرورة تطوير بعض قضاياه والامتداد بها لتلاحق التغيرات التى افرزها المجتمع الراسمالى ولم يضعها ماركس فى اعتباره . وموقف بوتومور — وان كان لم يحدد صراحة أى القضايا التى يرفضها من الماركسية والقضايا التى يقبلها — يكشف عن أنه يقبل المقولات العامة للماركسية شريطة اضفاء الطابع العلمى عليها ونزعها من سياقها الأيديولوجى السياسى ، ويكشف فى ذات الوقت عن ادراك لاختلاف طبيعة الظروف التى كتب فيها ماركس عن ظروف مجتمعنا الحديث ، وضرورة تطوير ذلك الجانب العلمى من الماركسية ليصبح لها قوة واهمية تطبيقية فى المجتمع الراسمالى المعاصر . وهى نفس الأفكار التى رددها ميلز تقريبا (١٨) .

---

(١٨) انتقد بوتومور فى كتابه « الصفوة والمجتمع » مفهوم رايت ميلز عن « صفوة القوة » بالرغم من ان ميلز قد اعتبره تطويرا لمفهوم ماركس عن الطبقة الحاكمة ، ولكن فى ضوء الظروف الجديدة التى خبرها المجتمع الراسمالى فى العصر الحديث . وقد جاء هذا النقد بالرغم من أن بوتومور =

وربما يكون اهم موقف تتقارب فيه أفكارهما هو ذلك الموقف المتعلق بالكفاءة التطبيقية للفكر الماركسى . فاذا كان رايت ميلز يرى فيه قوة تفسيره لبعض حقائق حياتنا المعاصرة ، يرى فيه بوتومور نفس الشيء الى جانب تركيزه على الطابع النقدى للفكر الماركسى . ففى الفصل الأخير من كتابه « نقـــاد المجتمع » اكد ضرورة البحث عن نظرية نقدية ، كما اكد ضرورة أن يصبح عالم الاجتماع ناقدا للمجتمع بدلا من قيامه بدور المهندس الاجتماعى . وفى استعراضه لامكانية قيام نظرية نقدية ، اكد على دور واهمية الماركسية فكتب يقول : « والنظرية العظيمة القادرة على احياء حركة النقد الاجتماعى واعادة البناء هى الماركسية . فما يزال بامكاننا أن نعتبر الماركسية نظرية اجتماعية يمكن أن تعبر عن فترة الاضطراب التى نعيشها ، غير أنها تجد صعوبة فى تحقيق ذلك كلما تقدم بنا الزمن خلال القرن العشرين » (١٩) .

وفى الوقت الذى يتحدث فيه بوتومور هذا الحديث عن المـــاركسية ، نجده يقرر أن النظريات المرتبطة بالنظام العام تفشل فى أن تفسر أحداث حياتنا المعاصرة المتغيرة . ويدعونا هذا الأمر أن نستعرض موقفه من هذه النظريات فى الفقرة القادمة .

٢ ــ ازمة علم الاجتماع : نحو علم اجتماع راديكالى :

اتخذ بوتومور فى مؤلفه الأخير موقفا نقديا من نظرية علم الاجتماع الغربى كما يتمثل نظريا ــ فى نظرية بارسونز ، وامبيريقيا فى بحوث سيمور مارتن ليبست ، فضلا عن انه اتخذ موقفا ازاء ما اطلق عليه جولدنر ، « ازمة علم الاجتماع الغربى » .

غير اننا نستطيع أن نتلمس موقفا مبكرا لبوتومور من أحد قضايا علم

= قد اعترف بأن ميلز قد تأثر بماركس.ولكن يبدو ان هذا الخلاف بين بوتومور وميلز ناشيء عن ان ذلك الأخير قد اهتم أساسا بنقد المجتمع ، بينما اهتم الأول بالتاريخ للحركة النقدية ومحـــاولة اضـــفاء الطابع النقدى على علم الاجتماع . ولقد كان بوتومور يعتبر أن ميلز ناقد مجتمع أكثر من كونه صاحب بديل جديد فى فهم الواقع .

(١٩) Bottomore, Critics of Society, op. cit., pp. 126-127

الاجتماع الغربى ـ هى مفهوم الصفوة ـ فى مؤلفه «الصفوة والمجتمع» (٢٠) . فنجد بوتومور يؤكد فى هذا الكتاب الطابع الأيديولوجى لمفهوم الصفوة ، ويذهب الى ان الكتابات التى دارت حوله قد استهدفت الديمقراطية الليبرالية ، ولمحاصرة الاشتراكية الماركسية ودحض نظرية ماركس فى الطبقات مستندة فى ذلك الى نقطتين : الأولى اثبات أن التصور الماركسى « للطبقة الحاكمة » خاطىء من أساسه . والثانية : البرهنة على ان وجود مجتمع لا طبقى أمر كمستحيل ، طالما أن هناك فى كل مجتمع قلة حاكمة . وفى سعيها الى تفنيد الماركسية تبنت نظرية الصفوة ضربا من الحتمية لا يقل بأى حال من الأحوال عن ذلك الذى تنطوى عليه الماركسية . فانقسام المجتمع الى قلة حاكمة وغالبية محكومة هو انقسام حتمى فى كل المجتمعات . بل ان نظرية الصفوة اشد حتمية من الماركسية ، فأصحاب نظرية الصفوة « . . ذهبوا الى أن هناك نمطا عاما ضروريا من المجتمعات السياسية ، وانكر الماركسيون الصدق العام لقانون « الصفوة والجماهير » مؤكدين حرية الانسان فى تخيل وخلق أشكال جديدة من المجتمعات » (٢١) . ولعل تحيز بوتومور الى نظرية ماركس هو الذى دفعه الى أن يقارن بينها وبين نظرية الصفوة ليظهر تماسك نظرية « الطبقة الحاكمة » واتساقها فى مقابل الصراع بين الاتجاهات المختلفة التى ظهرت داخل نظرية الصفوة ، وليبرز القوة التحليلية لنظرية « الطبقة الحاكمة » فى مقابل فشل نظرية « الصفوة الحاكمة » فى تفسير بعض

---

(٢٠) ت.ب. بوتومور ، الصفوة والمجتمع ، دراسة فى علم الاجتماع السياسى ، ترجمة محمد الجوهرى وزملائه ، دار الكتب الجامعية ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٢ .

ونعتقد أن هذا الكتاب يقابل ويكمل كتابه « الطبقات فى المجتمع الحديث » فيبدو أن بوتومور قد اراد أن يحلل فى كل كتاب منهما مفهوما اساسيا من مفهومات علم الاجتماع ، فحلل فى كتابه « الطبقات » مفهوم الطبقة على انه مفهوم جوهرى ورئيسى فى فكر ماركس ، وحلل فى كتاب « الصفوة والمجتمع » مفهوم الصفوة على انه مفهوم اساسى فى علم الاجتماع الغربى تمت صياغته لمواجهة مفهوم الطبقة فى الفكر الماركسى .

(٢١) المرجع السبق ، ص ١٧ .

الحقائق . فتلك الأخيرة تتجاهل نقطة أساسية هى الطريقة التى يحصل بمقتضاها الأفراد على أوضاع القوة (الاستغلال فى نظرية الطبقة الحاكمة) . وقد خلص بوتومور من مقابلته بين نظرية « الطبقة الحاكمة » ونظرية « الصفوة الحاكمة » الى الدفاع عن الأولى شريطة تخليصها من طابعها الماركسى الذى يؤكد على أنها ظاهرة واقعية يمكن ملاحظتها فى كل زمان ومكان . ومتى تخلصت من هذا الطابع الحتمى تصبح « نموذجا مثاليا » يستخدم كأداة استرشادية فى التفكير والبحث فى كل المجتمعات بحيث نكون « فى وضع يسمح بدراسة مدى اقتراب العلاقات الاجتماعية فى مجتمع معين من النموذج المثالى للطبقة الحاكمة والطبقات الخاضعة » (٢٢) .

واذا كان رفض مفهوم الصفوة يمثل موقفا نقديا مبكرا اتخذه بوتومور تجاه نظرية علم الاجتماع المرتبطة بالنظام العام ، ويكشف عن وعى أيديولوجى تبدى فى تبنيه للمفهوم المقابل ، وأعنى « مفهوم الطبقة الحاكمة » ، فان ذلك الموقف النقدى قد بلغ ذروته فى مؤلفه الحديث السابق الاشارة اليه . فنجده يعقد فصلين متتاليين يعالج فى أحدهما نظرية بارسونز ، وفى الثانى : بعض آراء سيمور مارتن ليبست . واذا كان بارسونز يمثل النظرية الكبرى المجردة ، وليبست يمثل النزعة الامبيريقية المجردة أيضا ، فان بوتومور هنا يكون قد اقتفى أثر رايت ميلز عندما وجه نقده الى النظرية الكبرى ، والنزعة الامبيريقية المجردة كاتجاهين عامين لهما قوة تأثيرهما فى علم الاجتماع الغربى المرتبط بالنظام . وسوف نرى أوجه شبه كثيرة بين طريقة تناول كل من ميلز وبوتومور للنظرية الكبرى والامبيريقية المجردة .

فى فصل بعنوان « خارج هذا العالم » (٢٣) Out of this World عالج بوتومور نظرية تالكوت بارسونز الاجتماعية . والفكرة الأساسية التى تدور حولها هذه المعالجة تنحصر فى ان أسلوب بارسونز فى التفكير ، وفى التعبير عن أفكاره يفرض عليه عزلة فكرية ويجعله يخرج بنفسه خارج

---

(٢٢) المرجع السابق ، ص ٤١ .

(٢٣) T.B. Bottomore, Sociology as Social Criticism, op. cit. pp. 29-43

العالم الذى نعيش فيه . فرغم أن ما يقوله عن الحياة الاجتماعية يعتبر شيئا عاديا عندما نعبر عنه بلغة بسيطة، الا أن التعقيدات التى يدخلنا فيها بارسونز ترتفع بنا عن هذه الحياة الاجتماعية فى ضرب من ضروب التجريد النظرى ، ينعكس ذلك الهروب من العالم فى عدم احساس بارسونز بالأمور السياسية والاجتماعية الحقيقية وعدم تكوين رؤية واضحة لمشاكلها (٢٤) .

ويبرهن بوتومور على وجهة نظره هذه من خلال بعض نظريات بارسونز التى عالجت بعض المشكلات السياسية . ففى مقالة عن « الزنوج الأمريكيين » حاول أن يصور الزنوج على أنهم الأقلية السلالية الأخيرة التى يجب أن تذوب فى بوتقة المجتمع الأمريكى وتندمج فيه (والعلاقة هنـــا واضحة بين تصويره للمشكلة ونظرية النسق المتوازن القادر على امتصاص التوترات وتشربها) . وعندما عالج بارسونز حركة الطلبة فى مقال بعنوان : « الجامعـــات وحركة الطلبة » حاول أن يناقش بناء وتطور الجامعات الأمريكية دون أن يتعـــرض للسؤال الخاص بما اذا كانت الأزمة التى تمر بها الجامعات الأمريكية تحتاج الى اصلاحات جوهرية أم لا ، وتكشف معالجته عن قبوله للبناء القـــائم للجامعة ، فلم يقدم تحليلا حقيقيا لمشكلات الجامعة ، واكتفى بالتحليل الوصفى للتنظيمات التقليدية القائمة . ولا شك أن ذلك ينبع أساسا من نزعته المحافظة فى تناول حقائق الوجود الاجتماعى ، فهو ينظر الى البناء الاجتماعى للمجتمع ـــ خاصة المجتمع الأمريكى ـــ على أنه غير قابل للتغيير .

ويتلمس بوتومور جذور الاتجاه المحافظ فى فكر بارسونز فى فهم ذلك الأخير لطبيعة النظرية السوسيولوجية حيث يحذف من نطاق النظرية عنصرين حيويين : العنصر الأول : التعميمات التجريبية والارتباطات المنظمة بينها فهو يحاول أن يقدم تصنيفا وصفيا للظواهر داخل ميدان معين ، أو تحليلا للمفاهيم المستخدمة فى هذا الميدان دون أن يقدم تفسيرا للأحداث فى علاقتها بالمشكلة

---

(٢٤) لا يعنى ذلك أنه ليس لآرائه ارتباط ايديولوجى ، سياسى ، ولكن بوتومور يقصد أن نزعته التجريدية قد أعمته فى رؤية المشكلات السياسية الحقيقية حيث يفهمها فى ضوء اطاره النظرى العام ، وهو اطار مرتبط بالنزعة المحافظة ومن ثم يجىء تصوره للمشكلات آخذا نفس المسار .

موضوع الدراسة . والعنصر الثانى : هو منـاهج البحث Methodology فلم يحدث فى تاريخ الفكر السوسيولوجى من ماركس الى دوركايم أن طور احد العلماء نظرية دون أن يحلل فى ذات الوقت أسسها وبناءهـا الشكلى ، وجميعهم اثاروا أسئلة حول قيمة وحدود التعميم والتفسير فى علم الاجتماع ، وحول المقولات العامة فى مقابل المقولات التاريخية فى النظرية الاجتماعية ، وحول الموضوعية والأيديولوجية ، ولكن بارسونز لم يناقش اى من هذه المشكلات وفى مقابل اعماله لهذين العنصرين انشغل بارسونز بتحليل وتصنيف المفاهيم وهو بذلك يكون قد ظل يعمل داخل حدود النطاق الذى يميز العلم فى مرحلة مبكرة من تطوره .

وقد فرض الاتجاه المحافظ على بارسونز أن يطور النظرية السوسيولوجية فى اتجاه معين هو الاتجاه المرتبط بالنظام ، مهملا الاتجاه الآخر المرتبط بالصراع ، ويعقد بوتومور ـــ للتدليل على ذلك ـــ مقـارنة بين مقـالات بارسونز عن دوركايم وفيبر وماركس المنشـورة فى كتـابه « النظـريات السوسيولوجية والمجتمع الحـديث » ، حيث يهتم عند دراسته لماكس فيبر ودوركايم بآرائهم فى الفعل الاجتماعى وتأثيرها على نظريته ، أما عند دراسته لماركس فلم يهتم بمكانة ماركس قبل الحركة الفكرية التى انشقت عن تيـار الوضعية والمثالية . ويرجع بوتومور السبب فى ذلك الى ان بارسونز يجد فى آراء دوركايم وفيبر قبولا أيديولوجيا ، لأنها تركز على الجوانب المعيـارية والثقافية ـــ التى تدعم النظام ـــ والتى تعد بؤرة مشروعه النظرى،اما ماركس فانه يركز على الجوانب المادية والمصالح الاقتصادية (التى تولد الصراع) .

هكذا ينظر بوتومور الى بارسونز ـــ نفس نظرة رايت ميلز ـــ على انه منظر محافظ يسعى الى تدعيم النظام العام القائم ، من خلال صياغته للواقع الاجتماعى صياغة مجردة تركز على جوانب الاسـتقرار والتـكامل والنظام ، تركيزا يحجب عنها الرؤية الحقيقية الواضحة للمشكلات الحقيقية التى تقابل الأفراد والجماعات فى العالم الحديث ، بل انها تسعى الى الهروب من هذا العالم « .. ولم يظهر هروب بارسونز من العالم الحقيقى اكثر مما ظهر فى كتابه « النظرية الاجتماعية والمجتمع الحديث » . فمن الخصـائص

القيمة لهذا الكتاب انه لا يمكن أن يكون دراسة عن المجتمع الحديث قط . فالعلم ، والصناعة ، والنمو السكانى ، والمجاعات ، والثورة ، والتعصب ، والصراع السلالى ، والحروب النووية ، لم تحظ بأدنى اهتمام . فقد تركت هذه الأحداث والمسائل التى تؤرق الناس فى المجتمع الحديث ، والتى تخلق القهر والثورة فى نفس الوقت ، تركت دون تفسير » (٢٥) .

والى جانب تحليله لنظرية بارسونز المجردة ، انتقد بوتومور آراء سيمور مارتن ليبست ومن المعروف انه تلميذ مخلص لبارسونز يبذل جهودا كبيرة ليقدم تدعيما امبيريقيا لنظرية أستاذه ، ومن ثم فاننا نعتبر أن نقد بوتومور لآرائه يمثل نقدا للنزعة الامبيريقية . ففى فصل بعنوان : «رجل محافظ» (٢٦) . A Conservative man يتتبع بوتومور بعض آراء ليبست ليكشف عن نزعته المحافظة . وتذهب القضية الرئيسية التى تنحصر حولها مناقشة بوتومور الى أن ليبست يتوحد مع نظرية النسق توحدا كبيرا الى درجة أنه أصبح جزءا من النسق يستجيب استجابة تلاؤمية للتوترات ثم ما يلبث أن يستدمجها ويحاول امتصاصها . فقد كان وما يزال يفكر فى ضوء نظرية النسق (التوازن) ، ولكن عندما تفجرت الصراعات البنائية والفكرية بتفجر الحركات الاجتماعية فى نهاية الستينات بدا يحيد الى حد ما عن نظرية النسق ، ثم ما لبث أن ارتد اليها بعد أن هدأت حدة هذه الصراعات . ويبرهن بوتومور على هذه المواقف الثلاثة لليبست من خلال دراساته فى بداية الستينات ثم آرائه فى حركة الطلبة اثناء تفجرها وبعد تكونها .

ففى عام ١٩٥٨ وفى نهاية كتابه «الانسان السياسى» دافع ليبست عن فكرة نهاية الأيديولوجيا ، واعتقد أن المشكلات السياسية للثورة الصناعية قد تم حلها فى عام ١٩٦٣ صاغ منهجه لكتاب The First New Nation فى ضوء نموذج التوازن والقيم حيث ذهب الى أنه سوف يفكر فى ضوء التوازن الدينامى ، الذى يتصور المجتمع على أنه يكيف نفسه باستمرار

---

(٢٥) Ibid., p. 43

(٢٦) T.B. Bottomore, Sociology as Social Criticism, op. cit., pp. 19-28

مع نسق القيم الرئيسى ، لكى يقلل من حدة التوترات التى تخلقها التغيرات فى العلاقات الاجتماعية .

وفى عام ١٩٦٨ وبعد تفجر الحركات الاجتماعية ذهب ليبست فى مقدمته لمجموعة من المقالات قدمت « لمؤتمر علم الاجتماع السياسى » ونشرت عام ١٩٦٨ ، الى أن عام ١٩٦٨ يعتبر عاما حاسما فى تاريخ علم الاجتماع حيث حدثت ثورة الغضب عند القوى الجديدة على النماذج والنظريات التى سيطرت على مقدرات العالم فى الخمسينات وبداية الستينات . ان ليبست هنا يستجيب للحركة الثورية ويحاول أن يوضح أنها حركة طبيعية ، ويعترف بضرورة تغيير النظريات القديمة لتستوعب مظاهر الصراع الذى فجرته هذه الحركة . وقد عبر عن ذلك صراحة فى أحد مقالاته عام ١٩٦٩ حيث ذهب الى أن نظرية النسق لا يمكن التحقق من صحتها فى ضوء الواقع الامبيريقى الراهن . ولتدعيم استجابته للحركات الثورية اتجه ليبست الى دراستها كما تمثلت فى حركة الطلبة . ورغم انه عالج هذه الحركات فى البداية على أنها سوف لا تحدث تغييرا جذريا فى بناء المجتمع ، الا انه عاد وأكد على أن حركة الطلبة تكشف عن فشل النظم والسياسات الاجتماعية والاقتصادية وتوقع تزايد حدة نشاط الطلبة فى هذا المجتمع المستقر .

ولكن ذلك الموقف الأخير هو أقصى ما وصلت اليه راديكالية ليبست — وما لبث بعد أن هدأت ثورة الطلبة هدوء مرحليا أن ارتد الاهتمام بالديمقراطية المستقرة فى معالجته للحركات المتطرفة : فهذه الحركات ليست حركات سياسية تقوم بها « جماعات خاضعة » ضد حكامها . وانما هى حركات متطرفة غير ديمقراطية تهدد الديمقراطية المستقرة التى يجمع عليها اكثرية السكان . وهو هنا يعود الى نموذج التوازن ويفسر الحركات الراديكالية فى ضوء المخطط النظرى المرتبط بالنظام العام ، عندما يسم المجتمعات الغربية بالاستقرار السياسى .

والحقيقة أن نقد بوتومور لتجريدية بارسونز وامبيريقية ليبست لا ينفصل عن تصوره لأزمة علم الاجتماع . اذ لا شك أن الاتجاه المحافظ الذى يسير فيه الخط النظرى والخط الأمبيريقى قد جعل العلم يفشل فى أن يواجه

التوترات والصراعات التى تفجرت مع ظهور الحركات الاجتماعية ، ومن ثم بدا يخبر ازمة داخلية . وازمة علم الاجتماع فى راى بوتومور ليست « ازمة قادمة » كما تصور جولدنر ، وانما ازمة واقعة بالفعل . وتتلخص وجهة نظر بوتومور فى ازمة علم الاجتماع فى النصين التاليين « .. بدا علم الاجتماع المحافظ (الذى يمثله بارسونز ، وبل ، وشيلز ، وليبست ، وآرون) .. يفقد قدرته على تفسير الأحداث الاجتماعية بطريقة مقنعة عندما ظهرت حركات سياسية وثقافية تتحدى او تنبذ طرق الحياة المقررة فى الكثير من الدول الصناعية » (٢٧) . « اذا كان علم الاجتماع يمر الآن بازمة ، فليس سبب هذه الأزمة انه يفشل فى أن يقدم لنا قوانين على مستوى عال ، ولكن بسبب أن الكثير من قضاياه الوضعية ، ونماذجه وتفسيراته لم تعد كافية ، كما انها لم تثبت قدرتها على اثارة مكتشفات جديدة ، او أن الواقع الاجتماعى الذى تطبق عليه هذه النماذج قد تغير تغيرا جذريا بحيث لم تعد تلائمه » (٢٨) . والشىء الذى يبرزه هذان النصان هو ادراك بوتومور لطبيعة التغيرات التى خبرتها المجتمعات الغربية ، تلك التغيرات التى لم يستطع التراث المحافظ أن يستوعبها ومن ثم بدا يفشل فى تحقيق هدفه النهائى واعنى الاحاطة بكل جوانب المجتمع وصفا وتفسيرا .

والحقق ان تصور بوتومور للأزمة لا يختلف كثيرا عن تصور جولدنر لها . فكلاهما ، يجمع على الاتجاه المحافظ لعلم الاجتماع ، وكلاهما يدرك طبيعة التناقض بين البنـــاء القديم والبناء الجـــديد الذى افرزته الحركات الاجتماعيـــة ، والاختلاف بينهمـــا ينحصر فى عنصرين ، لا يوافق بوتومور جولدنر فيهما :

١ ــ موقفه من الماركسية حيث اكتفى جولدنر بالقول بأن الماركسية والوظيفية مدرستين داخل علم الاجتماع تواجه كل منهما الأخرى (الأولى تمثلها الاتحاد السوفييتى والثانية الولايات المتحدة) ، فى صراع يمكن التخفيف

---

(٢٧) Ibid., p. 45

(٢٨) Ibid., p. 52

من حدته من خلال التقارب ، والتكيف المتبادل بين كل منهما . وقد ادى ذلك بجولدنر الى اهمال جوانب كثيرة فى المـــاركسية ، وكذلك اهمال الجدل النظرى الذى اثارته الماركسية وما زال تثيره الى الآن . هذا فضلا عن عدم ادراكه للحقيقة التى اكدها دريتزل Dreitzel والتى مؤداها أن هناك استعدادا فى المجتمعات الغربيـــة لتبنى وجهة النظر الماركسية واستخدامها فى اثارة مشكلات جديدة أو نقد اتجاهات جديدة (٢٩) . فراى بوتومور هنا يوحى بامكانية استخدام المـــاركسية فى فهم المجتمع ، بدلا من احداث تقارب بينها وبين الوظيفية ، خاصة اذا وضعنا فى الاعتبار موقف بوتومور من الماركسية كما عرضناه فى الفقرة السابقة .

٢ — لم يوافق بوتومور جولدنر على موقفه للخلاص من الأزمة ، فذهب الى أن جولدنر لم يكرس سوى جزء صغير من كتابه « الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربى » لمناقشة التطور المستقبلى لعلم الاجتماع ، فضلا عن أن فكرة « علم الاجتماع الانعكاسى » التى ابتدعها جولدنر كطريق لتخليص العلم من ازمته فكرة غير ملهمة . « فعلم الاجتماع الانعكاسى » لا يقدم لنا الا بعض الأسس الأخلاقية التى تلتزم بها حياة وعمل عالم الاجتماع كشخص ذو نزعة سياسية راديكالية ، والتى تدور كلها حول العلاقة بين حياة عالم الاجتماع بوصفه « عالما » وبين حياته الشخصية بوصفه « شخصا » ، بحيث يحقق قدرا من الوعى الذاتى فى علاقته بعمله .

وهو بذلك — والحديث ما زال لبوتومور — لا يطرح موضوعات جديدة للبحث والدراسة ، ولا يقدم اى فكرة موجهة ، فضلا عن انه يرد المشكلات العامة الى مشكلات شخصية ويغرقنا بذلك فى ضرب من التأمل الاستبطانى ، أو الرومانسية الذاتية (٣٠) .

---

(٢٩) Ibid., pp 46-47

(٣٠) Bottomore, Sociology as Social Criticism, op. cit. p. 52 and p. 54

والحقق أن بوتومور لم يتفهم جيدا ما يقصده جولدنر « بعلم الاجتماع الانعكاسى » فجولدنر لم يطرح هذه الفكرة بديلا للنظريات السابقة ، ولكنه =

ولكن ما هو البديل الذى يقدمه بوتومور لصياغة جولدنر . فى محاولته تحديد موقفه من الطريق الى خـــارج الأزمة نجـــد بوتومور يثنى على فكرة «المجتمع مابعد الصناعى» Post Industrial Society كما قدمها آلان تورين ونورمان بيرنبوم ويلخص بوتومور فكرته عن هذا المجتمع فى النص التـــالى « .. هناك صورة للمجتمع آخذة فى الظهور حيث يتغلب العلم فيها على مشكلة ندرة الحاجات الانسانية ، ويتحول العمل الصناعى من الأفراد الى الآلات ، ومن ثم يتغير النسق الطبقى ويتغير التوازن بين العمـــل ووقت الفراغ فى الحيـــاة الاجتمـــاعية ، وفى نفس الوقت تثير مشـــكلات التنظيم البيروقراطى المركزى ، والنظرة التكنولوجية الخالصة ، تثير ضروبا جديدة من الصراع الاجتماعى عبرت عنها بالفعل حركة الطلبة » . معنى ذلك أن هناك مجتمعـــا جديدا قد اكتمـــل ظهوره بالفعـــل ، مجتمـــع تخطى مرحلة الصناعـــة ، وتلعب فيـــه التكنولوجيا والبيروقراطية دورا كبيرا ، وتظهر فيه انماط جـــديدة من الصراع تختلف عن تلك التى خبرهـــا مجتمع الصناعة ، تفجرهـــا جماعات جديدة (غير العمال) على راسهم المثقفون والطلبة . وبناء على ذلك لابد أن يظهر نمط جديد من العلم يختلف عن نمطه السابق الذى نشأ فى احضان المجتمع الصناعى الراسمالى فى القرن التاسع عشر ، بحيث يعكس هـــذا العلم اتجاهات التطور الاجتمـــاعى فى المجتمع

= كان على وعى بالعلاقة بين النظرية والمجتمع الذى تفسره ،ومن ثم اعتقد أن النقد السوسيولوجى يعد نقدا اجتماعيا فى ذات الوقت . وبناء على ذلك فان ازمة العلم هى نفسها ازمة المجتمع ، وصياغة نظرية جديدة لابد أن يأتى بعد أن تتهيأ الظروف الفكرية والبنائية لتشييد هذه النظرية،ودور علماء الاجتماع فى هذه الحالة ينحصر فى تكريس جهوهم لنقد النظريات القائمة ونقد المجتمع القائم لكى يساعدوا فى تهيئة الظروف لصياغة النظرية ، وان يعتمد تجمعات فكرية تكون المنطلق لصياغة النظرية . وهم فى كل هذا لابد أن يتذرعوا بضرب من ضروب الوعى الذاتى بدور عـــالم الاجتمـــاع والتزامه وموضوعيته والعلاقة بين عمله وحيـــاته اليومية وكلها أمور يحـــددها علم الاجتماع الانعكاسى . فعلم الاجتمـــاع الانعـــكاسى اذن لا يعدو أن يكون « ميثاق عمل » للباحثين الذين يعيشون من أجل علم الاجتماع .

(٣١) Ibid., p. 53

المعاصر والاختبارات السياسية التى تفرضها هذه الاتجاهات . وهذا النمط الجديد للعلم لا ينفصل عن جذوره السابقة ، بل لابد أن ينشأ من خلال اعادة احياء الفكر السوسيولوجى السابق(٣٢) . ولم يحدد بوتومور أى نوع من الفكر يود تطويره أو اعادة احيائه ، اذ المحقق أن علم الاجتماع يضم بين جنباته فكرا محافظا وآخرا راديكاليا . فهل يود اعادة احياء الأول أم الثانى ، أم يود اعادة احياء مركب من كليهما معا ؟ . موقف بوتومور فى الاجابة على هذا السؤال غير محدد أو شديد الغموض .

يبدو أن بوتومور يتحيز فى صف الفكر الراديكالى ، فنجده فى نهاية نقده لآراء جولدنر يثنى على كتاب دريتزيل(٣٣) . فيقول : « فقط فى كتاب دريتزيل نجد اشارة الى اتجاهات جديدة . فالمقالات المجتمعة هنا كلها فى موضوعها واتجاهها . لاتعالج « الديمقراطية المستقرة » ولكنها تعالج تجارب وامكانيات « ديمقراطية المشاركة » . ولا تعالج المكانة والحراك ولكنها تعالج العلاقة بين الطبقات وتؤكد ظهور طبقات جديدة كقوى فى النضال السياسى ، ولا يهتم بظهور النظم السياسية والسلوك الانتخابى ، ولكنها تعالج ظهور حركات الاحتجاج الاجتماعى . وهذه المقالات تكشف — وكما اشار درتيزل فى مقدمته — عن استعداد للنسج على منوال ماركس ، وفهم لعلم الاجتماع على أنه علم « الأزمة الاجتماعية » كما كان عند ظهوره »(٣٤) . ومن هذا

---

(٣٢) الحقيقة أن رأى بوتومور هنا يقترب من رأى جولدنر ، حيث يتفقان على ضرورة تجديد الفكر السوسيولوجى ، ولكن الفرق بينهما يكمن فى أن جولدنر يقرر أن عملية التجديد هذه مرتبطة بتغير البناء التحتى الذى تقوم عليه النظرية ، واعنى المجتمع برمته ، والمجتمع — فى نظر جولدنر — لم يتغير تغيرا كليا وانما تغيره ما يزال فى مرحلة « التشكل » أما بوتومور فيذهب الى أن الصورة الحديثة للمجتمع قد تبلورت بالفعل وعلى علماء الاجتماع أن يتوصلوا الى نمط النظرية القادرة على الاحاطة بها وصفا وتفسيرا . والواقع أن رأى جولدنر أكثر واقعية وموضوعية ، وذلك لأن المجتمع الجديد لم يتبلور بعد تبلورا كافيا ، كما أن الصورة القديمة للنظرية ما تزال لها قوة مؤثرة ، ولابد من مرور بعض الوقت حتى يتغير الاثنان معا ، واعنى النظرية والمجتمع .

(٣٣) Ibid., p. 53

(٣٤) Ibid., pp. 14-15

النص نرى أن بوتومور لا يرغب فى الموضوعات القديمة المرتبطة بالنظام العام مثل « الديمقراطية المستقرة » والجراك الاجتماعى ، ويحبذ للموضوعات التى تعبر تعبيرا حقيقيا عن سمات المجتمع الحديث مثل ديمقراطية المشاركة ، وقوى المعارضة والرفض ، وهى موضوعات ترتبط بالجانب الراديكالى فى علم الاجتماع والجانب الراديكالى الذى يود أن يبرزه ويدعو الى اعادة تطويره لا يرتبط بتراث معين ، وانما هو الفكر الذى تتحقق له خاصيتان رئيسيتان : الأولى ترتبط بالطابع النقدى ، فأحد الملامح الايجابية والراديكالية فى علم الاجتماع هى أنه يتضمن نقدا مستمرا لكل نظريات المجتمع ، والمفاهيم الشائعة فى حياتنا اليومية ، وهذا الجانب النقدى هو الجانب الذى يسعى الى تحرير الانسان ، بدلا من السيطرة عليه مثل اى جزء فى الطبيعة . والثانية : ترتبط بهدف العلم ، فاذا كان هذا العلم هو اكتشاف ميكانيزمات الحياة الاجتماعية ، فانه ينتج شكلا أو آخر من اشكال السيطرة ، ولكن اذا كان هدف العلم هو الكشف عن كيفية تكون العلاقات الاجتماعية ، وكيفية تغيرها ، فانه سوف يؤدى الى التنوير العام وسوف تكون تأثيراته تحريرية(٣٥) .

ويبدو أن لعلم الاجتماع الراديكالى فى نظر بوتومور ثلاثة أوجه : وجه نظرى يهدف الى نقد النظريات القائمة التى تسعى الى استغلال الانسان والسيطرة عليه ، ووجه واقعى يهدف الى نقد الواقع بكل ما يحيط بجوانبه من علاقات وأشكال للصراع ؛ ووجه سياسى يدافع عن وجهة نظر الحركات الاجتماعية التى تهدف الى تغيير الواقع . وتلخص كلمات بوتومور هذه الجوانب لعلم الاجتماع الراديكالى ، فهو العلم الذى يهدف الى « نقد النظريات الاجتماعية فى ضوء وجهة النظر التى تفهم بها العالم الاجتماعى ، وتوضيح مظاهر عدم المساواة والضوابط الاجتماعية المرتبطة ببناء الطبقات وجماعات الصفوة ، التى تعطل نمو الحرية الانسانية ، وان يكشف عن طابع وتطلعات الحركات الاجتماعية التى تعارض البناء القائم فى المجتمع . وعلم الاجتماع الراديكالى بهذا المعنى يجمع فى ذاته ثلاثة عناصر ، نظرى وامبيريقى ، وسياسى فى ذات الوقت » (٣٥) .

---

(٣٥) Ibid., p. 16

وبهذا المعنى يكون فكر بوتومور نفسه فكرا راديكاليا ، فبالنسبة للجانب النظرى يكشف لنا العرض السابق عن نقده للاتجاهات القديمة وتفنيدها ، وبالنسبة للجانب الأمبيريقى السياسى فاننا سوف نكرس له الفقرة القادمة بعنوان « بوتومور ناقد المجتمع » .

٣ ـ بوتومور ناقد المجتمع :

لا تنفصل آراء بوتومور فى نقد النظرية عن رؤية امبيريقية شاملة تكشف دائما عن خواص البناء الاجتماعى والصراعات والتغيرات الكامنة فيه ، والأيديولوجيات السياسية السائدة داخله . وهذه الرؤية النقدية للواقع الاجتماعى تظهر فى كتابات بوتومور المبكرة والأخيرة بنفس القدر .

وسنحاول هنا أن نتتبع هذه الرؤية النقدية فى كتابات بوتومور . ففى كتابه « الطبقات فى المجتمع الحديث » ، كتب فصلا بعنوان « الطبقات فى المجتمعات الصناعية » يمكن أن نعتبره بحق نقدا اجتماعيا لبناء هذه المجتمعات الصناعية ، ويمكن أن نعتبره بداية فكرة بوتومور عن المجتمع ما بعد الصناعى . ففى هذا الفصل يتحدث بوتومور عن البناء الاجتماعى للمجتمع الصناعى بنموذجية (النموذج الرأسمالى والنموذج السوفييتى) ومع وجود اختلافات جوهرية بين هذين النموذجين فيما يتعلق بالأنظمة السياسية والمذاهب الاجتماعية والتغيرات التاريخية التى مر بها البناء الاجتماعى بكل منهما ، الا أن هناك وجوه شبه عديدة بينهما فيما يتعلق بالأبنية المهنية وطابع التدرج الاجتماعى بوجه عام .

ففى المجتمعات الرأسمالية نجد أن التغيرات الاقتصادية التى مرت بها منذ حطمت اسس ايديولوجية المساواة ، فمع ظهور المنظمات الصناعية والتجارية الضخمة ازداد التفاوت فى الثروة ، وازدادت الانقسامات الطبقية بشكل ملحوظ ، وازداد وعى الطبقة العليا بوجودها فسعت الى تكوين ارستقراطيات جديدة ، وفى نفس الوقت قلت درجة الوعى عند الطبقة العاملة . خاصة بعد الارتفاع فى مستويات المعيشة ، وزيادة التباين فى البناء المهنى ، ووجود نمط من التدرج الاجتماعى يزداد تعقدا يوما بعد يوم ،

واتساع نطاق الفرص التعليمية(٣٦) .

اما فى المجتمعات ذات الطراز السوفييتى ، فقد فشلت فى تحقيق المجتمع اللاطبقى بالمعنى الذى قدمه كارل ماركس . ففى مواجهة نزعة المساواة egalitarianism فى المجتمعات الغربية ، تغيرت سياسة الحكام السوفييت واتجهوا نحو زيادة الحوافز المالية للعمال المهرة والعلماء والفنيين والمديرين والمثقفين ، وكنتيجة لذلك زاد تفاوت الدخول حتى اصبح مماثلا لما هو قائم فى البلدان الراسمالية ، فضلا عن تزايد اعداد العاملين فى مهن الياقة البيضاء ، كما بدا ظهور صفوة حاكمة تشبه الى حد كبير تلك التى تعرفها المجتمعات الغربية ، وتمتلك هذه الصفوة زمام القوة وتمارس ضربا من ضروب الاحتكار الأيديولوجى من خلال مراقبتها للتفسيرات المختلفة للعقيدة السائدة المتمثلة فى الماركسية وهى تفسيرات تشكل تفكير الناس وآراءهم ، وتزودهم بالتبريرات المختلفة لسياسة الطبقة الحاكمة (٣٧) .

وفى كتابه « نقاد المجتمع » اهتم بوتومور بالتغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى طرات على المجتمع الراسمالى . فالكتاب رغم انه تأريخ لحركة النقد الاجتماعى الا انه لا يخلو من الاشارة الى هذه التغيرات . ففى نقده لآراء ريسمان وجالبراث اهتم بعدم تركيزهما على النظم الاقتصادية والسياسية من حيث أن هذه النظم تعد — فى نظره — اساس قيام مظاهر عدم المساواة فى المجتمع . كما انها ما تزال مصدرا للانقسام بين اليمين واليسار فى مجال الممارسة السياسية . هذا فضلا عن تحليله الاضافى لمظاهر التغير والصراع فى المجتمعات الغربية ، كما تتمثل فى الحركات الاجتماعية للزنوج والطلبة ، ويحاول أن يربط بينها وبين تغيرات المجتمع الراسمالى .

ويبرز اتجاه بوتومور النقدى فى مؤلفه الأخير حيث يقدم فى أكثر من مكان تحليلات مستفيضة للمجتمع الراسمالى وما يسود فيه من تيارات

---

(٣٦) بوتومور ، الطبقات ، مرجع سابق ، ص ص ١١٤ — ١٢١ .
(٣٧) المرجع السابق ، ص ص ١٢١ — ١٤١ .

سياسية وحركات اجتماعية فمن القضايا الجوهرية فى هذا الكتاب تأكيد بوتومور على ظهور نمط جديد من المجتمع له بناء متميز عن بناء المجتمع السابق عليه « المجتمع الصناعى » ، ويعانى من مشكلات جديدة اهمها المشكلات الثقافية والسياسية ، ولكنه مجتمع لا يخلو من صراع على أى حال تعبر عنه حركات التمرد للزنوج والطلبة ، والصراعات المسلحة فى آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية ، وتعبر عنه أيضا تعدد أساليب الممارسة السياسية أو الاتجاهات السياسية،وتعدد الاتجاهات الفكرية.وقد أدرك بوتومور اهمية الحركات الاجتماعية فى تشكيل عمليات التغير الاجتماعى فى المجتمع الراسمالى فى نهاية الستينات وبداية السبعينات من هذا القرن ، وقد دفعه ذلك الى أن يعالج حركة الطلبة والاتجاه الراديكالى معالجة مستفيضة .

ويفسر نشأة حركة الطلبة من خلال البناء الاجتماعى للمجتمعات الراسمالية الذى يرتبط بالحروب فى أماكن كثيرة (فيتنام) ، ويتميز بالصراع بين الأجناس ، ويفرض ضربا معينا من ضروب الممارسة السياسية هو ذلك القائم على الاجماع ومن ثم يقهر مظاهر التعبير بطريق غير مباشر ، هذا فضلا عن مظاهر الضعف فى الجامعة نفسها (تزايد أعداد الطلبة ، تزايد حجم الجامعات ، ظهور جيل من الشباب أكثر ثورية ،واقل امتثالا ،واستمرار الأشكال التسلطية والأبوية للادارة الجامعية) . ولكن بوتومور يعارض فكرة تورين وماركيوز والتى مؤداها أن الطلبة قد ورثوا الدور التاريخى للطبقة العاملة فى المجتمع الراسمالى المعاصر . حقيقة ان حركة الطلبة لاحقة تاريخيا للحركة العمالية ، ولكن بين الاثنين فروق كثيرة أهمها انهم لا يعدون جماعة مضطهدة مستغلة فى المجتمع ، كما أنهم ليسوا — ولن يصبحوا — غالبية من السكان فهم ما يزالون أقلية صغيرة غير قادرة على القيام بثورة الاغلبية الساحقة التى تنبأ لها ماركس والاشتراكيون الأوائل ، هذا فضلا عن أن جماعات الطلبة تفتقد نظام العضوية المستمر أو المستقر . وبناء على ذلك فانهم ليسوا الا جماعة من المثقفين ، ومن ثم لا نتوقع منهم أكثر من أن يقدموا تشخيصا راديكاليا لحالة المجتمع ، وهى المهمة المنوطة بالمثقفين الثوريين ، واذا شاركوا فى احداث الثورة فلا بد أن يتحالفوا مع جماعات أخرى فى حركة أشمل . ومع هذا يحاول بوتومور التنبؤ بامكانية تنظيم حركة الطلبة اذا

نظرنا اليها على انها تمثل مصلحة اجتماعيـــة معينة هى مصلحة الشباب : فهم من ناحية يعبرون عن مظاهر وآمال الجيل الأصغر برمته تجاه تناقضات المجتمع الحديث ، وحركة الطلبة بذلك تعتبر امتـــدادا لثورة الشـــباب ، ولثقافة الشباب بصفة عامة سواء اكانوا من الطلاب أم من غير الطلاب . ومن ناحية اخـــرى يمكن أن نتوقع أن يتبلور الوعى الذاتى للطلبة كجماعـــة اجتماعية مميزة تعبر عن نفسها داخل نطاق الجامعة ، من خلال معارضتها لاسلوب ادارة الجامعة ونظمها البالية . ويزيد من هـــذا التوقع أن حـــركة الطلبة فى كل المجتمعات قد بدأت من خلال هذا الصدام بين أنظمة الجامعـــة وبين رغبات الطلبة . واذا استطاعت حركة الطلبة أن تنظم نفسها فى ضوء هذه الاعتبارات : كونها تمثل مصالح جيل الشباب ، ومصالح جماعة داخل الجامعـــة ، وكحركة اجتماعية راديكالية ، فانها يمكن أن تستمر فى المستقبل وتكون نواة لتكوين حزب راديكالى جديد ، ومجالا لانتـــاج جيل جـــديد من المفكرين الراديكاليين .

ولا يهمنا أن نعلق على آراء بوموتور فى آراء الطلبة ، بقدر ما يهمنا تأكيد الحقيقة التى مؤداها أن دراسة بوموتور لحركة الطلبة وربطها بالبناء القائـــم تكشف عن رؤيـــة راديكالية واضحـــة للتغييرات والصراعات التى يخبرها المجتمع الغـــربى والتى تميز بنـــاءه الجديد ، هـــذا من ناحيـــة ومن الناحية الاخرى تميط اللثام عن الجانب الثالث من التفكير الراديكالى فى نظر بوتومور ، وأعنى الجانب الأمبيريقى الواقعى . وجماع آراء بوتومور بهـــذا تكشف عن تأثره الواضح برايت ميلز . فهو لا ينفصل عن الأحداث التى تشكيل روح العصر كما انه يوجه فكره نحو نقد النظرية المجردة ونحو نقد البحوث الامبيريقية وفى نفس الوقت لا يفصـــل هذا النقـــد السوسيولوجى عن نقد المجتمع أو على الاقل الدعوة الى نقده ، وهى نفس الامور التى اهتم بها س. رايت ميلز . وهذا هو الذى دعانا الى القـــول بأن بوموتور يعـــد أحد الذين يطورون الخط النقدى الذى تبناه رايت ميلز .

ثالثا : جون ركس : من نقد النظرية الى نقد المجتمع

ذهب جون ركس عام ١٩٧٣ الى أن عظمـــة رايت ميلز تكمن فى انه استطاع أن يواجه المشكلات التى يتميز بها البناء الاجتماعى فى عصره ، مثله فى

ذلك مثل ماكس فيبر وماركس كما ذهب الى أن علم الاجتماع فى بريطانيا لم يستطيع أن ينجب باحثا على نفس المستوى الذى بلغه ميلز (٣٨) . ولكن علم الاجتماع البريطانى استطاع أن ينجب أخيرا هذا الباحث ، ولكن من الغريب حقا أن يكون هذا الباحث هو نفسه جون ركس . ويدعونا هذا الأمر الى القول بأن جون ركس كان على وعى حقيقى بأنه فى طريقه الى النسج على منوال ميلز عندما كتب هذا الكلام عام ١٩٧٣ ، أو أنه بدأ يعى دراسة المشكلات الكبرى فى البناء الاجتماعى للمجتمع المعاصر على غرار ما فعل ميلز ، أو يلم بالتغيرات الواسعة النطاق والصراعات الكبرى التى بدأت تتفجر داخله وتميزه عن الأبنية الاجتماعية السابقة عليه .

وبصرف النظر عن صحة هذه التفسيرات ، فان المحقق أن جون ركس قد بدأ يتحول تحولا كبيرا بعد عام ١٩٧٣ نحو الاتجاه الراديكالى النقدى، وبدأ يمزج — تماما مثلما فعل رايت ميلز — بين أفكار كل من ماركس وماكس فيبر ، ويتجه مثله مثل رايت ميلز أيضا — نحو التأكيد على ضرورة التزام الباحث فى علم الاجتماع وضرورة سعيه نحو الكشف عن مظاهر الاستغلال والقهر فى المجتمع الحديث . ولقد ظهرت بوادر هذا الاتجاه فى نفس كتابه الصادر عام ١٩٧٣ . حقيقة أن كتابات ركس السابقة تكشف عن تميز واستقلال فى وجهة النظر مثله مثل بوتومور تماما ، غير أن ركس بدأ فى مؤلفاته الأخيرة يتجه نحو نقد المجتمع من خلال رؤية نقدية راديكالية صريحة وذلك مع الاحتفاظ بوجهة نظره فى نقد النظرية التى طورها فى مؤلفاته المبكرة . ومما لا شك فيه أن هذا التحول قد جاء من خلال احتكاك فكر جون ركس بالتغيرات البنائية

---

(٣٨) J. Rex, Discovering Sociology, op. cit.,

ولم يحدد ركس الاسباب التى جعلت علم الاجتماع فى بريطانيا يعجز عن انجاب مثل هذا الباحث ، ولكنه فى مكان آخر من هذا الكتاب ذهب الى ان علم الاجتماع فى بريطانيا قد ارتبط بثلاثة موضوعات اساسية : النزعة التطورية والوظيفية (هوبرت سبنسر) والخدمة الاجتماعية (تشالزبوث) ، ودراسات الوراثة والسكان (ريتشارد تيمتس) ، وانه انتج باحثين مهرة فى تصميم الاستبيان وفى اجراء البحوث وتحليل النتائج (المرجع السابق ، ص ٤٧) ، وربما يكون هذا هو السبب الذى جعل علم الاجتماع البريطانى يفشل فى انتاج باحث مثل رايت ميلز .

والفكرية التى اجتاحت بناء المجتمعات الغربية منذ نهـــاية الستينات والتى عرضنا جانبا منها فى الفصل السادس من هذا البحث .

ويتضح تأثر جون ركس برايت ميلز فى أن نقده قد سار فى نفس خطى النقد اللذين طورهما رايت ميلز ، وأعنى النقد السوسيولوجى والنقد الاجتماعى ، فقد ظل جون ركس ناقدا سوسيولوجيا للاتجـــاهات القديمـــة المرتبطة بالنظام العام فى المجتمع مستفيدا فى ذلك من تميز تراث ماكس فيبر داخل التيار المحافظ ، ومن راديكالية تراث كارل ماركس فى مواجهة هذا التيار المحافظ ، الى أن بدا فى آخر مؤلفاته يمزج هذا النقد السوسيولوجى برؤية نقدية للمجتمع على نفس طريقة رايت ميلز . وسوف نتعرض فى هذه الفقرة لهذين الجانبين فى فكر جون ركس .

١ ــ النقد السوسيولوجى :

ظهرت بواكير النقد السوسيولوجى عند جون ركس فى كتابه الشهير « مشكلات أساسية فى النظرية الاجتماعية » (٣٩) . فند ركس فى هذا الكتاب الاتجاه الوظيفى ، ونظرية الفعل فى صيغتها البارسونزية مطورا اياها فى صياغة جديدة . فبالنسبة للاتجاه الوظيفى ذهب ركس الى أن هذا الاتجاه ينادى بقضايا باطلة لا تدعمها الا براهين بدائية للغاية ، فضلا عن أنهـــا تعانى من قصور لاهمالها دراسة انماط الفعل القـــائمة على ادراك المجتمع ادراكا ذاتيا (٤٠) . واذا كان ركس قد رفض الاتجاه الوظيفى فقد تبنى الفعل كاطار مرجعى فى صياغته النظـــرية . غير انه لم يتبنه بنفس صياغتـــه البارسونزية ، ذلك أن بارسونز ــ فى رأيه ــ قد اهتم بموقف واحد فقط من مواقف التفاعل الاجتماعى وهو موقف التعاون والاتفاق العام على القيم ، وذلك عندما اكد على ضرورة تكامل دافعية الأفراد مع المستويات المعيـــارية الثقافية انطلاقا من مشكلة النظام التى تضفى طابع التكامل والاستقرار على عناصر البناء الاجتماعى . وقد كتب ركس فى هذا الصدد يقول « .. على

---

(٣٩) جون ركس ، **مشكلات أساسية فى النظرية الاجتماعية** ، ترجمة محمد الجوهرى وزملائه منشأة المعـــارف بالاسكندرية ، الطبعـــة الأولى ، عام ١٩٧٣ .

(٤٠) المرجع السابق ، ص ص ١٢٩ ــ ١٣٠ .

الرغم من أننا قد نذهب مع بارسونز الى أن العناصر المعيارية تدخل ضمن وحدة الفعل التى تظهر فى الأنساق الاجتماعية ، فان ذلك لا يعنى مطلقا أن الأنساق الاجتماعية تحقق تكاملا تاما بواسطة هذه العناصر » (٤١) .

وقد فرض عليه رفضه لصياغة بارسونز أن يطور فى تصور علاقات التفاعل بحيث يمكن أن تستوعب جوانب كثيرة من الواقع الاجتماعى . ولقد كان الجانب الرئيسى الذى أهمله بارسونز هو الجانب المتعلق بالصراع ، وبناء عليه قدم ركس نموذجا للصراع يقوم على سبعة قضايا رئيسية (٤٢) .

١ — بدلا من تصور الأنساق الاجتماعية على أنها منتظمة حول مجموعة من القيم المتسقة ، يمكن تصورها على انها تتضمن مواقف صراعية تمتد من المساومة السلمية وحتى العنف السافر .

٢ — لا يؤدى ظهور هذه المواقف الى مجتمع موحد ، ولكنه يؤدى الى مجتمع جماعى به طبقتان أو أكثر ذات مصالح مختلفة .

٣ — يتسم الموقف الصراعى بعدم توازن فى القوى وبناء على ذلك تظهر طبقة حاكمة وأخرى محكومة .

٤ — قد يتغير موقف القوة لصالح أى من الطبقتين الحاكمة أو المحكومة كنتيجة لتغير العوامل التى تزيد من امكانية مقاومة الطبقة المحكومة أو قيامها بثورة .

٥ — قد لا تستطيع الطبقة الثورية أن تفرض ارادتها على الطبقة الحاكمة بعد تحطيم الأساس الذى تستند اليه هذه الطبقة ، ومن ثم تنشأ انقسامات جديدة داخل الطبقة الثورية .

٦ — نظرا لأن الأهداف البعيدة للطبقة المحكومة تكون غامضة وغير محددة ، فانها تسلك — بعد أن تقبض على مقاليد القوة — فى ضوء المواثيق والمثاليات التى صاغتها فى مرحلة ما قبل الثورة .

---

(٤١) المرجع السابق ، ص ١٥٦ .
(٤٢) المرجع السابق ، ص ص ١٩٤ — ١٩٥ .

٧ ــ قد لا يؤدى التغير فى ميزان القوة الى الثورة الكاملة ، ولكنه قد لايؤدى الى نوع من التوفيق والاصلاح .

ويعد هذا النموذج ، بجانب كونه نظرية فى الصراع الاجتماعى ، نظرية فى التغير الاجتماعى ، ويكشف عن تأثر واضح بنظرية ماركس فى الصراع والتغير . حقيقة ان ركس لم يهتم بالكثير من الجوانب التى اهتم بها ماركس مثل الأساس الاقتصادى لعلاقات الصراع ، وتماسك وتنظيم الطبقة الثورية ، الا ان حصر الصراع بين طبقتين احداهما حاكمة والأخرى محكومة يكشف عن تأثر واضح بالمفاهيم الماركسية ، وان كان جون ركس قد أحال الصراع على أدوات الانتاج الى صراع على التحكم فى مصادر القوة . وهو يكون ــ مثله مثل دارندورف ــ قد استبدل الحتمية الاقتصادية فى المشروع الماركسى بحتمية سياسية . واذا وضعنا فى اعتبارنا أن ركس قد تأثر بماكس فيبر فى صياغته لنظرية الفعل حيث ركز على الادراك الذاتى لعلاقات التفاعل ، اذا وضعنا ذلك فى اعتبارنا اتضح لنا كيف استطاع ركس ــ مثله فى ذلك مثل ميلز تماما ــ أن يمزج بين افكار كل من ماركس وماكس فيبر .

ولم يقتصر نقد ركس على نقد النظرية ، وانما امتد أيضا ــ وكما هو الحال عند ميلز ــ الى نقد النزعة الأمبيريقية . فقد اعتقد ميلز أن النزعة الأمبيريقية قد أغرقتنا فى تفصيلات وصفية جزئية عندما اهتمت بمشكلات الادارة والانحراف والحراك الاجتماعى فى ضوء فكرة الاتفاق العام على القيم . وبذلك انفصلت انفصالا كليا عن الاتجاه النظرى المجرد وعجزت ــ مع استثناءات قليلة ــ عن أن تقدم اسهاما حقيقيا فى فهم البناء الاجتماعى بما يشتمل عليه من مظاهر للتغير والصراع (٤٢) .

ولقد جاءت آراء جون ركس اللاحقة تطويرا لهذه الآراء ، وان كان قد اضفى على آرائه طابعا فينومينولوجيا واضحا . فهو يقر صراحة تأثره

---

(٤٣) المرجع السابق ، ص ص ٦٥ ــ ٧٣ .

بالتراث الفينومينولوجى النابع من افكار الفرد شوتز Schutz وتابعيه (بيتر بيرجر Berger وشيكوريل Cicourel وجارفينكل Garfinkle) ولكنه اكد ايضا أن اعمال فيبر قد حققت هدفين لم تستطع اعمال هؤلاء الفينومينولوجيين أن تحققها : احدهما تمييزه بين الأنماط المثالية للفعل والتى يقوم الباحث بصياغتها وبين نظرة الفاعل للموقف وتصوره الواقعى له . وثانيهما هو استخدامه لأسلوب التنميط فى عقد مقارنات بين الملامح البنائية للأنساق الاقتصادية — السياسية عبر التاريخ . انه هنا يحاول أن يثرى النظرة الفينومينولوجية التى تهتم بالمواقف الواقعية للفاعلين وتصوراتهم عن البناء الاجتماعى ، بالنظرة البنائية المقارنة التى قدمها ماكس فيبر . ولا يخفى علينا أن نتكشف استمرار تأثر ركس بماركس فى هذه المرحلة من تفكيره ، فهو يعبر صراحة عن اعجابه بالماركسيين المحدثين من أمثال لوكاتش Lukacs وجولدمان وهابرماس Habermas وان كان لا يوافق على نزعاتهم اليوتوبية كما تعبر عن ذلك كلماته « .. اننى أستطيع أن أصف الأبنية الاجتماعية ، وان اقيمها على انها قهرية ومستغلة ، ولكنى لا ارى هناك سببا لافتراض انه بسبب هذا القهر وذلك الاستغلال يجب أن تتغير هذه الأبنية على المدى الطويل .. فهذه الأبنية تمتلك قدرا كبيرا من المرونة ، وعالم الاجتماع الذى يرغب فى أن يكون علمه مفيدا فى الواقع السياسى يجب أن يتأمل هذه الأبنية فى اطارها الكلى ، قبل أن يندفع فى محاولة التوصل الى يوتوبيا غير قابلة للتحقيق » (٤٤) . وينطلق ركس هنا من موقف كل من فيبر وميلز ، حيث حاول الأول ان يفهم النظام الرأسمالى فهما بنائيا دون الدعوة الى تغييره ، وحيث حاول الثانى أن يرصد التغيرات البنائية الكامنة فى هذا النظام من خلال نظرة تشاؤمية بالنسبة لمستقبل هذا النظام .

ويبدو أن ركس لم يقتنع بهذا الرأى فى الابتعاد عن المنظورات اليوتوبية فقلبه راسا على عقب فى مؤلفه الأخير والذى ظهرت فيه قسمة عادلة فى الربط بين أفكار ماكس فيبر وماركس . فبعد أن عالج الأبنية الاجتماعية فى العوالم الثلاثة معالجة نقدية من خلال صوغ الأنماط المثالية حاول فى النهاية

---

(٤٤) J. Rex, Discovering Sociology, op. cit., p. XV

ان يقترح بعض الأساليب لتغيير هذه الأبنية فى المستقبل من خلال بعض « المنظورات اليوتوبية » (٤٥) . وسوف تتضح لنا هذه الناحية بجلاء عندما نستعرض نقد ركس للعالم الحديث ، وما يهمنا الآن هو أن نؤكد أن اتجاه ركس النقدى فى صورته الحديثة يتميز بخاصتين : الأولى انه يقوم على أساس تطوير وجهة نظره فى النظرية السوسيولوجية التى قدمها فى كتابه « مشكلات أساسية » وذلك من خلال مزيد من الربط بين افكار ماكس فيبر وماركس ، بل اننا يمكن أن نسمه — من خلال قراءتنا لكتابه الأخير — بأنه ماركسى محدث ، أو يسارى جديد يسير فى نفس الطريق الذى سار فيه سابقه رايت ميلز . والثانية اتجاهه نحو نقد المجتمع ، وهو نقد يقوم على نفس الأسس النظرية التى طورها أو اهتم بها ، ويكشف عن تأثر واضح بالروح الراديكالية التى سادت المجتمعات الغربية فى نهاية الستينات وبداية السبعينات على ما سنرى فى الفقرة القادمة .

٢ — النقد الاجتماعى : عالم الاجتماع وتحرير الانسان المعاصر :

ذكرت فيما سبق أن جون ركس قد تحول فى مؤلفه الأخير نحو الاتجاه الراديكالى متوخيا نفس الطريق الذى سار فيه رايت ميلز . ويتضح هذا التحول فى نظريته الى دور عالم الاجتماع ، وفى تطبيقه لهذا الدور على نفسه عندما قدم نقدا مستفيضا للبناء الاجتماعى للمجتمع الحديث .

هاجم جون ركس دور عالم الاجتماع كباحث متحرر من القيم يسعى الى تطبيق المعرفة العلمية على الشئون الانسانية من أجل مزيد من السيطرة على العالم ، من أجل تأكيد النظام الاجتماعى العام . فعلم الاجتماع لايستطيع أن يحقق هذا المطلب لأن التحرر من القيمة يعنى أن يقوم عالم الاجتماع بدور «الخبير» الذى يعمل تحت وصية رجال السياسة دون الخضوع لأى ضوابط

---

(٤٥) كتب ركس فى نهاية كتابه « علم الاجتماع وتحرير العالم الحديث » فصلا بعنوان « بعض المنظورات اليوتوبية للمستقبل القريب » حدد فيه الأسس التى يجب أن يقوم عليها تغيير النظم فى العوالم الثلاثة . انظر :

J. Rex, **Sociology and Demystification of Modern World,** Routledge and Kegan Paul, London, 1975, pp. 239-254

اخلاقية . كماهاجم دور عالم الاجتماع كباحث ينفذ ذلك النوع من البحوث الذى يهدف الى حل المشكلات العلمية والتى يطلق عليها « البحوث التى توجهها السياسة Policy Oriented Researches لأن الباحث فى هذه الحالة يربط تفكيره بسياسة الحكومة ويقوم المواقف من وجهة نظرها . يقوم بمهمة خبير العلاقات العامة ، ويلقى اللوم دائما على الأفراد الأقل قوة ، ويمنعهم من الحركة اذا كان متعاطفا معهم (٤٦) . ما هو الدور المنوط بعالم الاجتماع اذن اذا كان ركس يرفض كلا الدورين السابقين ؟

لا يمكن أن نفصل تصور ركس لدور عالم الاجتماع عن تصوره لعلم الاجتماع النقدى . فقد اعتقد ركس أن نظريات علم الاجتماع وبحوثه والتى توخت الأهداف السابقة تسعى الى تعمية الانسان (أو تجهيله) الذى يعيش فى مجتمعنا المعاصر . وبناء على ذلك فلابد أن يظهر نمط جديد من العلم يتوخى هدفا انسانيا فى المحل الأول ، بأن يسعى الى أن يعين هذا الانسان على أن يتخلص من براثن هذه « التعمية » ويتحرر منها . بمعنى أن يتوجه العلم الاجتماعى نحو تحرير الانسان لا تجهيله والسيطرة عليه . وعلم الاجتماع الجديد هذا لابد أن يكون علما نقديا راديكاليا يقدم منهجا لوصف الأبنية الاجتماعية وتحليل وظائفها للمشاركين فيها بما فيهم علماء الاجتماع أنفسهم والكشف عما يرتبط بها من أهداف وأيديولوجيات سياسية ، فهذه الأيديولوجيات ما هى الا أساطير تخفى الواقع (٤٧) فنحن نعيش فى عالم تعتمد الحياة فيه على فهم الأبنية الاجتماعية القائمة ولكن هذه الدراسة البنائية لا تعنى اهمال قوى الثورة . فالباحث السوسيولوجى لابد أن يدرس

---

(٤٦) J. Rex, Sociology and Demy . . op. cit, pp. 3-6

(٤٧) لم يعتنق ركس أيديولوجية معينة ، بل اصر على ضرورة تبنى النظرة العدمية Nihilism ، بمعنى أن يشك فى كل القيم والمعتقدات التقليدية ، وفى ضوء هذه النظرة يمكن للباحث أن يدرس العلاقات والنظم القائمة دون أن يفترض ضرورة المحافظة عليها أو تغييرها . والنظرة الحيادية هنا ليست نظرة انسحابية ولكنها نظرة ثورية ليبرالية تود أن تأخذ فى اعتبارها رأى كل الجماعات دون التسلم بصحة آرائها . انظر جون ركس ، المرجع السابق ، ص ص ٨ — ٩ .

قوى الثورة داخل الأبنية الاجتماعية المستقرة (التى تنبثق من الصراع الطبقى فى العالم الأول ، والصراع ضد البيروقراطية فى العالم الثانى ، والصراع ضد الفقر والبؤس فى العالم الثالث) . وعلم الاجتماع النقدى فى نظر ركس يقترب من فكرة « الانعكاسية السوسيولوجية » بالمعنى الذى ذكره جولدنر ، فهو يسعى الى تحرير الواقع وتحرير العلم فى ذات الوقت : تحرير الواقع من قهر وتجهيل النظم والأبنية ، وتحرير العلم من غموض لغته ومن ابتعاده عن مشكلات الانسان فى العالم الحديث (٤٨) . ومن وجهة النظر النقدية هذه تكون المهمة المنوطة بالباحث فى علم الاجتماع هى فهم هذا العالم من أجل التعرف على مشكلاته العامة ومدى تأثيرها على المشكلات الخاصة للأفراد (٤٩) .

ومع الاهتمام بالعلاقة بين المشكلات العامة والهموم الخاصة يصل جون ركس الى قمة الاتفاق مع رايت ميلز . فقد اهتم ذلك الأخير على ما راينا آنفا بالبناء الاجتماعى من أجل أن يكشف للأفراد العاديين عن همومهم اليومية ليكتسبوا قدرا من الوعى الذاتى يجعلهم قادرين على الربط بينها وبين المشكلات البنائية العامة . وبنفس الطريقة يؤكد جون ركس أن الهدف الكلى من دراسة المجتمع هو تخفيف معاناة الأفراد . فمعاناة الأفراد ليست الا انعكاسا لمشكلات البناء الاجتماعى ، وليست ناتجا من نواتج الخلل فى هذا البناء على ما يذهب روبرت ميرتون ووليم جود . ويذهب ركس الى أن العلاقة بين المشكلات العامة والمشكلات الخاصة تتخذ شكلين : الأول : ان هناك مشكلات عامة محددة وتؤثر على مشكلات خاصة محددة ، والثانى : ان النظام الرأسمالى والصناعى يخلق من الآثار الجانبية مشكلات خاصة تعبر عن تحلله كنظام اجتماعى . وما تزال المشكلات العامة التى عبر عنها ميلز — البطالة والحرب ومشكلات المدن والأسرة — أهم المشكلات التى يعانى منها النظام الرأسمالى ، وان كانت قد اتخذت صورا جديدة . غير أن ميلز قد اهتم فقط بالعالم الرأسمالى — خاصة أمريكا — ولكن ركس

---

(٤٨) Ibid., pp. 6-10

(٤٩) Ibid., p. 237

يحاول أن يوسع من نظرة عالم الاجتماع لتشمل العوالم الثلاثة : الأول الرأسمالى ، والثانى الشيوعى ، والثالث المختلف . وهناك بعض العمليات فى المجتمع الشيوعى تشبه تلك التى توجد فى العالم الرأسمالى من ذلك مثلا الالتزام الكامل بالبيروقرطية ، وممارسة الصفوة الحاكمة لضروب جديدة من الاستغلال . وتؤثر نظم العالم الرأسمالى والعالم الشيوعى على مشكلات العالم الثالث فتزداد مشكلات الفرد وهمومه فى هذا العالم . والباحث السوسيولوجى اذ يسعى الى الكشف عن المشكلات العامة وتأثيرها على مشكلات الفرد الخاصة فى العوالم الثلاثة ، فانه يهدف من وراء ذلك الى تحرير demystify هذه العوالم والتقليل من تأثير الأيديولوجية على مشكلات الأفراد (٥٠) .

وفى ضوء وجهة النظر هذه يقدم جون ركس دراسة للعوالم الثلاثة ، فيتحدث عن العالم الرأسمالى ، والعالم الشيوعى ، والعالم الثالث ، ثم يرسم فى النهاية صورة للعالم من خلال تفاعل العلاقات بين هذه العوالم ، مركزا على موقف الفرد فى هذا العالم الجديد ، وما يعانى فيه من هموم ومشكلات ، يفرضها عليه اتخاذ البناء الاجتماعى طابعا وشكلا معينا . وهو يقدم هذا التحليل النقدى اسهاما منه فى الربط بين المشكلات العامة والمشكلات الخاصة فى طريق السعى نحو تحرير الانسان الحديث والعالم الحديث .

عن العالم الرأسمالى أو المركب الرأسمالى الغربى يركز جون ركس على سمتين أو خاصيتين تميزان بناء المجتمع وتتسببان فى افراز كل مظاهر معاناة الفرد داخل هذا المركب هما (٥١) :

الخاصية الأولى : الشركات والتركيب الطبقى : فالنسق الرأسمالى يقوم على سيطرة الشركات الاحتكارية الكبرى يساندها جهاز بيروقراطى من صنع الدولة يستهدف تقديم الخدمات . ويخلق هذا النسق فئة من

---

(٥٠) Ibid., pp. 208-222

(٥١) ibid., pp. 117-146

الراسماليين ومصدرى السياسة ، يملكون قدرا كبيرا من القوة والسلطة ، ويحركون كل الأفراد من أجل خدمة التنظيمات الراسمالية والبيروقراطية الحكومية ، تمارس سيطرة على طبقة اخرى مغلوبة على امرها تضم غالبية الجماهير (٥٢) . ويخلق النظام الراسمالى القائم على سيطرة الشركات الكبرى وما يرتبط به من بناء طبقى مجموعة من المشكلات يمكن حصرها فيما يلى :

(أ) يوجه المشروع الراسمالى نحو تحقيق اكبر قدر من الربح ، ومن ثم تشيع روح المنافسة بين المشروعات بحيث يسعى كل مشروع نحو جذب اكبر عدد من المستهلكين للسلع التى ينتجها ، وهنا يتدخل أسلوب الاعلان ليتحكم فى المستهلك الى درجة يصبح فيها « لعبة » فى يد الراسمالى ، فهو يجاهد دائما من أجل تحقيق مستوى معيشى أعلى طبقا للقيم التى وضعتها امامه وسائل الاعلان .

(ب) لا يعتمد المشروع الراسمالى على ميكانيزمات السوق فقط ، وانما يعتمد أيضا على وجود شركات بيروقراطية تظهر فيها كل المشكلات المتصلة بالبيروقراطية فيما يختص بالميكنة والتزود بالمواد الخام ، وتدفق العمالة ، وفى ظل هذا النظام يصبح المدير مجرد آلة تتحكم فيه الآلة أيضا ، ويصبح العمال مجرد « مامورين » يتلقفون أوامر الادارة على انها شرعية .

(ج) بجانب ميكانيزمات السوق وبيروقراطية الادارة هناك مشكلات تخلقها خدمات الرفاهية . فرغم أن مشروعات الرفاهية تمول من الايراد العام الا انه غالبا ما يخلق بعض الأفراد لأنفسهم سوقا خاصة فيما يتعلق بالطب ، والتعليم ، والتأمين . ويحاول اصحاب

---

(٥٢) يؤكد ركس على وجود ثلاث طبقات رئيسية هى طبقة الراسماليين وطبقة الحكام والطبقة العاملة ، يوجد بجانبهم مجموعة اخرى من الشرائح الاجتماعية .

المهن بيع خدماتهم بسعر مرتفع لبيروقراطية الدولة . ومن ثم يظهر ضرب من ضروب الصراع بين الخدمات التجارية والخدمات العامة ، يؤدى الى تدخل الحكومة لخلق البيئة التى يستطيع فيها الأشخاص والتنظيمات الخاصة أن تمارس أعمالها التجارية ، وهى فى ذلك تكافىء البعض وتعاقب البعض الآخر .

(د) ينقلنا هذا الى المشكلات التى تخلقها عملية صنع القرار السياسى الذى يسعى الى خلق التوازن بين المصلحة العامة والمصلحة الخاصة ، مع المحافظة على النظم الأساسية . وتشير الدلائل فى هذا الصدد الى أن الحكومة غالبا ماتعجز عن أن تصدر قرارا يخالف مصالح أصحاب المشروعات الرأسمالية . وهنا يظهر تحالف الطبقة الرأسمالية مع الطبقة الحاكمة فى مواجهة الطبقة العاملة التى يتولد لديها احساس بالتضامن الاجتماعى . ينتج عنها مجموعة من المعايير الطبقية القرمية . ووسط هاتين الطبقتين (طبقة البرجوازية والحكام والطبقة العاملة) توجد طبقة البرجوازية الصغيرة التى تعرف هوية محددة ولا تملك قدرة على العمل الجماعى .

وتخلق كل هذه السمات مجتمعا رأسماليا جديدا يطلق عليه ركس « المجتمع ما بعد الرأسمالى » Post-Capitalist Society ، ولكنه يؤكد أن هذا المجتمع لا يختلف كثيرا فى الأسس التى يقوم عليها — عن المجتمع الرأسمالى من حيث أنه يقوم على صراعات وتناقضات جذرية . واذا كان جانب من هذه الصراعات والتناقضات يتضح من الخصائص السابقة ، الا أنها تتضح بجلاء فى الخاصية الثانية التى تسمى المركب الرأسمالى .

الخاصية الثانية : يطلق جون ركس على هذه الخاصية « هندسة الاتفاق » The engineering of consent (٥٣) . وتعنى هذه الخاصية أن استقرار المجتمع الرأسمالى — اذا وجد — لا يقوم على تشرب الأفراد

---

(٥٣) هذا المصطلح مستعار من رايت ميلز .

لنسق القيم ، أو على تفاعل أجزاء المجتمع تفاعلا وظيفيا . انه على العكس من ذلك تماما يقوم على استغلال الطبقة الحاكمة للأساليب الرشيدة فى اخضاع الجماهير لقراراتها وسياستها مستغلة فى ذلك عجز وعدم رشد هذه الجماهير . وفى هذه الحالة يصبح الفرد مضطربا ، لا يمارس اختيارا رشيدا ، ولا يقدم اى راى فى كل ما يتعلق بأمور حياته . ذلك أن الطبقة الحاكمة « تهندس » حياته من خلال أساليبها الرشيدة ، فتجعله « مستقبلا » لا «مشاركا » ، وتقوم وسائل الاعلام بدور كبير فى هذه « الهندسة » فهى تشغل كل حياتهم ، وتنقل لهم أخبار العالم برمته ، وتقدم لهم حلولا فورية لكل مشكلات حياتهم . وفى هذه الحالة يصبح الفرد سلبيا يشاهد فقط ما يقدم له ، ويعرف فقط ما يريد الآخرون أن يعرفه ، ومن ثم يعيش مغتربا لا يدخل فى اى علاقة الا ويكون « ضحية » أو « متفرج » وليس له أدنى رقابة على كل الامور المتصلة بجوهر حياته ، ولا يشارك اى مشاركة حقيقية فى مجال الممارسة السياسية .

ويحاول جون ركس اقامة أنماط مثالية لهؤلاء الأفراد المغتربين الذين تخضعهم الطبقة الحاكمة لارادتها ، وذلك فيما يتعلق بالممارسة السياسية :

(أ) وهناك الفرد الذى يدرك انه عاجز عن هذه الممارسة ، ومن ثم ينسحب من اى مناقشة تتعلق بالسياسة ، ويفضل ان يناقش امورا حيادية لا تهدده بالدخول فى صراعات غير مترقعة بينه وبين الآخرين (الاهتمام بالكرة مثلا) .

(ب) وهناك الفرد الذى ينسحب الى عالم الترفيه التافه ويصبح مثله الأعلى أحد المغنين الشعبيين أو أحد نجوم الكرة . وهو يعتبر أن عالمه هذا عالم مثير ومقدس اذا ما قورن بالعالم الكئيب المدنس للحياة اليومية .

(ج) هناك الفرد الذى يقبل على القراءة ويعتقد انه يبحث بجدية عن الحقيقة وأن يلم بكل الحقائق والآراء البديلة . وليس معنى ذلك انه اقل تعمية أو تجهيلا من النمطين السابقين . فالفرد الذى يريد أن يعرف غالبا ما يجد تفسيرا « جاهزا » pre-packed للعالم .

واذا ما اعتقد أن هناك جانبين لكل مسألة ، فانه يستطيع أن يحصل على تفسيرهما دون أن يعرف الحقيقة .

ويذهب ركس الى أن هذه الأنماط يمكن احتواؤها داخل نسق الأفكار الذى يحدده أولئك الذين يملكون السلطة . والأسلوب الوحيد للخروج من هذه الدائرة يكمن فى تملك معرفة مستقلة بعالم السياسة ، ومشاركة فعلية فيه . حقيقة أن النظام القائم على هندسة الاتفاق لديه قدرة على مقاومة التغير ، ولكن هناك أملا — ولو ضئيلا — فى تغييره يكمن فى تزايد عدد الأفراد الذين يحققون فهما كافيا بميكانيزماته الرشيدة فى التجهيل . ويقع على الباحث السوسيولوجى عبء كبير فى تحقيق هذا الهدف .

* أما عن العالم الثانى فان جون ركس يحلل ما يطلق عليه البناء القائم على التخطيط المركزى والتعبئة السياسية . فيذهب الى أن هذا البناء يفرز نفس النمط من المواقف والمشكلات التى تقهر الفرد وتجعله يعيش أجهزة الدولة التى تسيطر عليها الطبقة الحاكمة ويلخص ركس المشكلات المرتبطة بهذا النظام على النحو التالى (٥٤) :

١ — تنبع المشكلة الأولى من الدور الذى يلعبه الحزب ، وبنائه الداخلى وعلاقته بالبيروقراطية الاقتصادية . فالحزب فى المجتمع القائم على التخطيط المركزى ظاهرة اجتماعية جديدة فى نوعها من حيث أن تنظيمه يختلف عن تنظيم الأحزاب فى العالم الرأسمالى . فالحزب ينـاط به — نظريا — حماية مصالح الطبقة العاملة ويسعى نحو تحقيق أكبر سعادة لأكبر عدد ممكن من الأفراد . ولكن انجاز هذه الوظائف محدد ببناء الحزب الداخلى ، اذ انه يسعى نحو الحفاظ على بنائه الداخلى أكثر من المحافظة على تحقيق أهدافه . ومن ثم يفرض رقابة مشددة ومزدوجة على أعضائه ، ويجند فصائل بوليسية لا متناهية يراقب بعضها البعض الآخر ، ويحطم قاعده الديمقراطية ويحولها الى قواعد بيروقراطية .

---

(٥٤) Ibid., p. 148

٢ ــ أما المشكلة البنائية الثانية فتتعلق بالعلاقة بين الحزب والتنظيمات الأخرى فى المجتمع ، حيث يحاول الحزب أن يتفادى الصراع بينه وبين هذه التنظيمات ومن ثم يحاول تعبئتها وتجنيدها لخدمة أغراضه :

(أ) فبالنسبة لنقابات العمال يحاول أن يخضعها للرقابة وغالبا ما يسيطر ممثلو الحزب على المناصب القيادية فيها .

(ب) وبالنسبة للتنظيمات الدينية ، التى يجب ألا نفترض أنها اختفت نهائيا من المجتمع الشيوعى المخطط ، فان الحزب يستخدمها لتحقيق التضامن الاجتماعى والتعاون المتبادل .

(ج) بالنسبة للنظم التعليمية والفكرية فان الحزب يوجهها لتدعيم أيديولوجيته وأفكاره . ويراقب الحزب المفكرين ومن ثم يختفى التفكير الموضوعى والنقد الذاتى أو مراجعة الأفكار الأساسية القائمة .

(د) بالنسبة لوسائل الاتصال استطاع العالم الثانى أن يحقق تقدما يضاهى التقدم الذى حققه العالم الرأسمالى فى هذا المجال . فالحزب يراقب وسائل الاتصال الجماهيرية رقابة كاملة . أما المادة التى تقدمها هذه الوسائل ــ سواء كانت فكرية أو اخبارية ــ فانها تجعل الفرد يخضع خضوعا كليا للطبقة الحاكمة .

ولا شك أن هذه المشكلات البنائية العامة تؤثر على شخصيات الأفراد وتجعلهم يعيشون فى اغتراب مستمر عن مجتمعهم ، بنفس الطريقة التى يعيش بها الفرد فى المجتمع الرأسمالى . ويذهب ركس بناء على ذلك الى أن الاقتصاديات المخططة للعالم الشيوعى لم تحقق المثاليات اليوتوبية لحركات العمال فى المجتمعات الرأسمالية ، بل على العكس من ذلك ــ فرضت عليهم صنوفا جديدة من الاستغلال . ومن مهام الباحث فى علم الاجتماع أن يكشف لسكان العالم الثانى عن هذه الحقائق لكى يستطيعوا أن يتغلبوا ــ من خلال تغيير المجتمع ــ على همومهم الخاصة .

أما العالم الثالث فيطلق عليه ركس عالم المستعمرات . ويذهب الى أن نظمه الاقتصادية والأبنية الاجتماعية المتصلة بها تختلف عن مثيلتها في المجتمعات الصناعية المتقدمة ، فما تزال الأبنية التقليدية قائمة ، وان كانت الحضارات التقليدية لهذا العالم قد حطمها الاستعمار ، وخلق على أنقاضها مجتمعا لا متجانسا يضم العمال ، والمستوطنين ، والمبشرين وموظفى المستعمرات ، بجانب السكان الوطنيين .

واذا كانت مشكلات العالم الأول تتعلق بالأجور والاستقلال الاقتصادى وبالحرية السياسية والفكرية فى العالم الثانى ، فان أهم مشكلات العالم الثالث هى المرض والفقر والعنف . ولاشك أن جانبا كبيرا من هذه المشكلات يرجع الى عصور الاستعمار الطويلة التى عاشتها وتعيشها بعض دول العالم الثالث . وحتى بعد حصول اغلب الدول على استقلالها السياسى فان العالم الرأسمالى ما يزال يمارس عملية استغلال للعالم الثالث من خلال المساعدات العسكرية والمالية ، ومن خلال مساندة الطبقات الحاكمة التى قد تكون قائمة على القهر والاستغلال . ومن ثم فان ثورة العالم الثالث لا يجب أن تتجه نحو استغلال الدول المتقدمة لهذا العالم فقط ، ولكن يجب أن تتجه بنفس القدر نحو استغلال القادة المحليين والطبقات الحاكمة(٥٥) .

وبعد أن يعرض جون ركس لتصوراته عن الأبنية الاجتماعية الثلاثة يحاول أن يلقى الضوء على الصورة العامة لهذه الأبنية من خلال علاقتها بعضها بالبعض الآخر فيقرر حقيقتين جوهريتين :

الأولى : أن العالم المتنور (ويقصد به العالمين الأول والثانى) قد أفرز من التناقضات الداخلية ما وضعه على حافة أزمة تتبدى فى عدم التكامل الأخلاقى لبناء هذا العالم ، عدم التكامل الذى لا يجعل من عالمنا عصر تنوير جديدا ، وانما يخلق منه عصرا مظلما جديدا . وينعكس التفكك الأخلاقى هذا فى أسلوب

---

(٥٥) Ibid., p. 174

التحكم الرأسمالى فى الأفراد من خلال الترشيد البيروقراطى وفى مشكلات المدن ، وظهور الثقافات المضادة كما هو الحال فى حركة الطلبة أو ثورة الأقليات الزنجية ، وما يمارس ضد هذه الثقافات المضادة من مظاهر قهر ومقاومة . ويعنى ذلك أن « .. النظامين الرأسمالى والشيوعى الذى يعتقد أصحابهما أنهما نظامان مثاليان ، قد بدأ فى الانهيار الى درجة اننا أصبحنا نعيش بالفعل فى عالم تعتبر فيه القوة والخداع قاعدة أساسية » (٥٦) .

الثانية : فى مقابل عصر الظلال هذا يجب أن تنهض الثورة فى العالم الثالث لمواجهة بربرية العالم الرأسمالى . وفى هذا الصدد يدعو ركس الى ضرورة قيام اتحاد وتحالف بين حركات التحرير فى العالم الثالث .

ومعنى ذلك أن ركس يدعو الى نظام جديد ويلح على ضرورة تغيير بناء العالم كله ، أو أنه — فى عبارة أخرى — يدعو الى « تحديث العالم » بحيث تخفى سيطرة النظام القديم فى العالم المتقدم ، وتختفى الأجزاء المتخلفة اجتماعيا من العالم ، وتتحرر شعوبها من براثن الخرافة والوهم . فبالنسبة للنظام الرأسمالى يجب أن يتجه التطور فيه نحو مزيد من تحرير الانسان من سيطرة العمل ، ونحو مزيد من اخضاع النشاط التجارى لخدمة الأغراض الانسانية . أما بالنسبة للنظام الشيوعى فلابد أن تحدث داخله تغيرات نظامية حقيقية بحيث بدأ الحزب فى معاملة أعضائه ، ليس كآلات أو بيروقراطيين ، ولكن ككائنات بشرية ناضجة قادرة على أن تكتشف أفكارا جديدة وتعبر عن مشاعرها بحرية . أما بالنسبة لدول العالم الثالث فأمامها اختياران : فهى اما أن تختار الأسلوب الرأسمالى الرشيد أو تختار النظام القائم على التخطيط المركزى . غير أن هذين النظامين لم يثبتا نجاحا كاملا فى المجتمعات

---

(٥٦) Ibid., p. 192

الغربية والشرقية ، ومن ثم يحذر ركس دول العالم الثالث من زحف هذين النظامين ويدعو هذه الدول الى المحافظة على بعض القيم التقليدية التى توجد بها . فهذه القيم التقليدية يمكن أن تمنح هذا العالم خطوطا أخرى للتقدم والتطور أفضل من تلك التى تقدمها النظم المتقدمة (٥٧) .

ولا شك أن علم الاجتماع يلعب دورا كبيرا فى عملية التنوير أو التحديث التى يقصدها ركس . فالمهمة المنوطة بالباحث فى علم الاجتماع تتمثل فى رفع التجهيل الأيديولوجى عن العالم أجمع ، وتسليط الضوء على العلاقة بين الهموم الفردية والمشكلات البنائية التى غالبا ما تختفى وسط متاهات الأيديولوجية والبحوث التى توجهها السياسة . ويكشف ذلك عن تأثر واضح بتشارلز رايت ميلز الذى دعا الى التزام الباحث بتنوير الجماهير بحيث تصبح قادرة على استيعاب العلاقة بين همومها الفردية ومشكلات البناء الاجتماعى التى تعيش داخله ، وذلك فيما أسماه « بالخيال السوسيولوجى » . والفرق الوحيد بين ميلز وركس يكمن فى أن الأول قد قصر تحليلاته على المجتمع الأمريكى ، بينما امتد بها الثانى لتشمل النظم المختلفة فى العوالم الثلاثة من خلال رؤية راديكالية عميقة للعلاقات بينها .

---

(٥٧) Ibid., pp. 239-251

خـــــاتمة :

حاولت فى هذا الفصل أن ألقى الضـــوء على جانب آخر من حـــركة التجديد والنقد فى علم الاجتماع ، ذلك الجانب الذى اقتفى أثر رايت ميلز فى الاهتمام بنقد المجتمع مع ربط هذا النقد ربطا وثيقا بنقد النظرية . ويتميز هذا الاتجاه عن الاتجاه الذى عرضنا له فى الفصل السابق ، فى أن الاتجـــاه الأول اهتم اهتماما جوهريا بنقد النظرية معتقدا أن نقد النظرية يمثل — فى ذات الوقت — نقدا للمجتمع . أما الاتجاه الثانى فقد اهتم بنقد النظرية قدر اهتمامه بنقد المجتمع ومن ثم تنادى أوجه النقد التى وجهت للاتجاه الأول . ولكن رغم هذا الاختلاف الطفيف بين التباين فى حركة النقد ، فانهما يلتقيـــان حول هدف واحد ، واعنى تحرير علم الاجتماع من التيار المحافظ المرتبط لمشكلة النظام ، وبالتالى السعى نحو تحرير الأفراد داخل هذا المجتمع مما يفرضه هذا النظام من اساليب للتجهيل والقهر .